حسّان بن ثابت

هو حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري ، من بني النجار من قبيلة الخزرج ، يكنى أبا الوليد وأبا عبد الرحمن وأبا الحسام . شاعر رسول الله المعروف أسلم قُبيل الهجرة ، وذاد عن الإسلام بشعره مع صاحبيه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وكان حسان أشعر الثلاثة ، وهو كثير الشعر جيّده. وقد عُمِّر حسان طويلاً إذ عاش مئة وعشرين سنة ، ستين قبل الإسلام وستين في الإسلام كما ذكرته كتب التأريخ . وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) يسمع من حسَّان ، ويقول له : « ... أجب عني ، اللهمَّ أيّده بروح القدس » . أي جبريل وله شعر كثير مجموع في ديوان طبع مشروحاً مرات عديدة .

قال يرد على الشاعر الزبرقان بن بدر :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

إنَّ الذَّوائبَ من فِهْرٍ وإخوتِهمْ
قد بَيَّنوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ (١)

يرضى بها كلُّ مَنْ كانَتْ سَريرتُه
تقوى الإله وبالأَمرِ الذي شَرعوا (٢)

قَومٌ إذا حَارَبوا ضَرُّوا عَدوَّهم
أو حاولُوا النَّفع في أشياعِهم نَفعوا (٣)

سجيَّـةٌ تِلك منهم غيـرُ مُحدثـــةٍ

إنِ الخلائِـقَ فاعلَـمْ شرُّهـا البِـدَعُ (٤)

لا يَرقعُ الناسُ ما أوهَـت أكفُّهـمُ

عنـدَ الدِّفـاع ولا يُوهُـون ما رقعـوا (٥)

إِن كـانَ في النَّاس سَبَّاقُون قَبلَهُمُ

فكُـلُّ سبقٍ لأدنـى سَبقهـم تَبـعُ (٦)

ولا يضنُّون عـن جَـار بِفضلِهـم

ولا يُدَنِّسُهُـم في مَطمـعٍ طَبَـعُ (٧)

لا يجهَلُونَ وإِنْ حاولـتَ جَهلهم

في فضلِ أحلامهم عَن ذاكَ مُتَّسَـعُ (٨)

أعِفَّةٌ ذُكِرتْ في الوحـي عِفَّتُهُـم

لا يطمعـون ولا يُرديهـمُ الطَّمـعُ (٩)

كم مـن مُـوالٍ لهمْ نالُـوا كرامتهُ

ومـن عـدوٍّ عليهـمْ جاهد جَدعُـوا (١٠)

أعطـوا نبيَّ الهـدى والبِّـر طاعتَهمْ

فما ونى نصرُهم عنـهُ وما نزعُـوا (١١)

إِن قال سِيروا أَجدُّوا السَّيرَ جُهدَهمُ

أو قال : عُوجُوا عَلَينا ساعـةً رَبعُـوا (١٢)

اللغة

(١) الذوائب : جمع ذؤابة ، وذؤابة كل شيء : أعلاه . والمراد به هنا السادة .

- فِهر : الجد الأعلى لقريش .

- سُنّة : طريقة ومنهج .

(٢) سريرته : ما يستره من أفكار ومقاصد .

- شرعوا : رسموا واختطوا .

(٣) الأشياع : الأتباع والأنصار .

(٤) السَّجِية : الغريزة .

- الخلائق : واحدها الخليقة ، وهي الطبيعة .

- البِدع : واحدها البدعة ، وهي المستحدثة من الأخلاق .

(٥) أَوهت : مزَّقت وشقَّقت .

(٦) تبع : تابع .

(٧) يضنّون : يبخلون .

- طَبَع : عيب ووسخ .

(٨) أحلامهم : عقولهم .

(٩) الوحي : القرآن .

- لا يطمعون : لا يعملون ما يعيبهم ويدنسهم .

- يرديهم : يؤدي بهم إلى الهلاك .

(١٠) جاهد : مجتهد في عداوتهِ .

- جدَعوا . قطعوا أنفه ، يريد أذلُّوه .

(١١) ونى : ضعف .

- نزعوا : انصرفوا عن طاعته .

(١٢) عوجوا : ميلوا إلينا .

- ربعوا : وقفوا وأقاموا .

التعليق النقدي

وفد على رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) وَفْدُ بني تميم عام الوفود بعد فتح مكة ، وقدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر لينشد قصيدة يفخر فيها بقومه ، وكان حسان غائباً فبعث إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) .قال حسان : فلما جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم خرجتُ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) فلما انتهيت إليه وقام شاعر القوم ، فقال ما قال ، عرضتُ في قوله ، وقلت على نحو مما قال ، فلما فرغ الزبرقان من قوله ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) لحسّان : (قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال) . فقال حسّان هذه القصيدة ، فلما فرغ حسّان من قوله ، وخطيب المسلمين الذي ردّ على قوله خطيبهم أيضاً . قال رئيس وفد تميم، وأبي إن هذا الرجل لمأتَي له أي (لموفَق) ، لخطيبهُ أخطب من خطيبنا ولَشاعره أشعر من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا .

وكان فخر حسّان خليطاً بين المعاني القديمة التي أقرها الإسلام مما كان يفخر به العربي آنذاك . والمعاني الجديدة التي جاء بها الإسلام فقال : « إن السادة من قريش المهاجرين وإخوتهم الأنصار ، قد رسموا للناس طريقة ومنهجاً ، يسيرون عليه ويتبعونه ، وهو منهج الإسلام الذي يرضى به . ويؤمن بشريعته كلّ مَنْ أسَرَّ في قلبه وفكره تقوى الإله والخوف منه » .

ومن صفات هؤلاء المسلمين أنهم يضّرون أعداءهم وينفعون أتباعهم في الحروب فهم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم كما وصفهم القرآن الكريم وليست هذه الصفة مما اكتسبوه حديثاً بل هي صفة أصيلة فيهم لأن شرّ الأخلاق المستحدث الذي لا يملكه الإنسان أصلاً فقد تكون تلك الأخلاق وليدة الهوى والغرض .

وإذا وُجد في غير المسلمين أحد يستطيع أن يفوز في السباق ، فان هذا الفائز يكون بعد آخر فائز من المسلمين وليس من صفات المسلمين البخل على الحليف والصديق ، ولا ينالهم العيب والشَّين من شيء يطمعون فيه لأنهم بعيدون عن الطمع . إن عقولهم أسمى من أن تسفّ وتؤدي إلى الجهل ، وهو الحمق وسرعة الغضب ، لسعة عقولهم واتزانهم فلا يستطيع أحد ، مهما حاول أنْ يحملهم على شيء ليس من أخلاقهم وهم أعفَّةٌ ، يكفون أنفسهم عما يعيب الانسان

وقد ذكر القرآن الكريم عفتهم حين قال :

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴿٢٧٣﴾ ﴾[1]

ولا يفعلون ما يُدَنِّسهُم ولا يطمعون طمعاً يؤدي بهم إلى الهلاك ، يحفظون لأصدقائهم كرامتهم ، ويذلون أعداءهم الممعنين في عداوتهم .وهم مذعنون لأمر قائدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) مضحّون في طاعته والاستجابة له ، ولم ينصرفوا عن ذلك مطلقاً ، ومن مظاهر تلك الطاعة ومظاهر الاستجابة السريعة ، أنهم متى طلب منهم الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) السَّير بذلوا كل طاقتهم ومتى طلب منهم الميل إلى مكان ما ، سارعوا وأقاموا في ذلك المكان .كل ذلك كناية عن تمام الخضوع وكمال الاستسلام لقيادة الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله وصحبه) .

(١) البقرة / آية ٢٧٣ .

كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المشهور وكان لكعب أخ شقيق اسمهُ بُجَير . لمّا ظهر الإسلام تأخر بُجير وكعب عن الدخول فيه ولكن لّما زاد انتشاره أَسلم بُجير قبيل سنة (٧ هـ - ٦٢٨م) ثم شهد فتح مكة ، أما كعب فإِنهُ بقي على الشرك فعزم في سنة (٩ هـ ٦٣٠ م) على أن يستأمن إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) فجاء سرّاً إلى المدينة واستشفع بأبي بكر ثم سار على اثره حتى دخل المسجد فلما صُلّيت الصبح أَوصلهُ ابو بكر إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) فقال كعب للرسول : (يارسول الله رجلٌ يبايعك على الإِسلام) . وبسط يده وحسر عن وجهه وقال : (بأبي وأمي أنت يارسول الله أنا كعب بن زهير) . فأمنه الرسول فأنشده كعب قصيدة كان نظمها في مدحه ، التي مطلعها :

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ	متيّمٌ إثرها لم يفدَ مكبولُ

وكانت وفاته سنة ٢٦ هـ / ٦٤٥ م.

كان كعب بن زهير شاعراً فحلاً مُكثراً مجيداً ، منهم من قرنه وجعله مع لبيد والنابغة في طبقة واحدة ، وقال خلف الأحمر : (لولا أبيات لزهير أَكبرَها الناس لقلتُ إنّ كعباً أشعر منه) .

أما أغراض شعره فيدور معظمها على المدح والهجاء والفخر والحماسة ولم يكن كعب يرضى عن كلِّ ما قال من الشعر . ولا غروَ فهو على مذهب أبيه من التنقيح والتشذيب في صناعة الشعر .

قال كعب بن زهير مادحاً

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

فقلتُ خلوّا سبيلي لا أبالكم

فــكلُّ ما قـدَّرَ الرَحمنُ مفعولُ

كلُّ ابنِ أُنثى وإِنْ طالت سلامتُه

يــومــاً على آلةٍ حدباءَ محمولُ (١)

نُبِّئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدني

والعـفو عند رسـول الله مـأمُولُ (٢)

مهلاً هداك الذي أَعطاك نافلة الـ

قــرآنِ فيــها مواعيظٌ وتفصيلُ

لاتأخُذنِّي بأقوال الوشاة ولم

أُذنب وَلـو كَثُرَت فيَّ الاقاويلُ

لقد أَقومُ مقاماً لو يقومُ به

أرى وأسمعُ ما لو يسمعُ الفيلُ

لظلَّ يُرعَدُ إلا أنْ يكون لَه

مــن النبيّ بــإِذن الله تــنـويــلُ (٣)

إِنّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به

مُـهنَّدٌ مـن سيــوف الله مسلولُ

في عصبةٍ من قريشٍ قال قائلهم

ببطنِ مكةَ لمَّا أسلموا زُولوا (٤)

زالوا فما زال أنكاسٌ و لا كُشُفُ

عند اللقاء ولا ميلٌ معازيلُ (٥)

شُمُّ العرانين أَبطالٌ لبُوسهم

من نسجِ داودَ في الهيجا سرابيلُ (٦)

لا يفرحونَ إذا نالت رماحُهم

قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا

لا يَوقعُ الطعنُ إلا في نحورِهم

ومالهم عنْ حياضِ الموت تهليلُ (٧)

اللغة

١ – حدباء : معوَجّة . يريد هنا (النعش) .

٢ – أوعدني : هددني بالقتل .

٣ – يُرعَدُ : (مبني للمجهول) يرتجف .

– تنويل : العطاء ، أي : العفو .

٤ – زولوا : هاجروا .

٥ – أنكاس : ضعفاء .

- كُشُفُ : الذين ينهزمون عند أول اللقاء في الحرب .

- مِيل : جمع (أميل) : الذي لا يثبت على ظهر جواده ، إشارة إلى الهرب .

- معازيل : لا سلاح لهم .

٦ - شمّ العرانين : كناية عن الشرف .

- من نسج داود : يلبسون الدروع المشهورة من صنع داود (ع) .

- الهيجا : الحرب .

- سرابيل : طويلة .

٧ - تهليل : من هلل من عدوّه : جَبُن .

التعليق النقدي

هذه الأبيات مُختارة من قصيدة كعب المشهورة (بانت سعاد) أو (البردة) وبعد مقدمتها التي كانت غزلاً تقليدياً - جرياً على عادة الشعراء - انتقل إلى الموضوع الأساس وهو مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) رجاءً لعفوه .

يقول الشاعر : لقد حذّرهُ الكثيرون من الموت الذي ينتظره إن هو عزم لقاء النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه) ، ولكنّه اندفع واثقاً بعفو نبي الرحمة والهدى (صلى الله عليه وآله وصحبه) ، وإنّ ما قدّره الله سبحانه لا رادَّ له. وكلّ انسان صائر إلى الموت ، وإنّ الوعيد والتهديد من عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) بلغني ، ولكنني آمل عفوه ويخاطب كعب رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) .

خطاباً مباشراً ويرجوه التمهل في الحكم عليه مُتوسلاً إلى ذلك بما لرسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) من مكانة عند الله ، وبحقِّ هذه المكانة الرفيعة التي منها نزول القرآن الكريم عليه ، هذا الكتاب الذي فُصّل فيه كُلّ ما يهمّ الناس ويرجو كعب ألا يحاسب بأقوال الكاذبين الذين أكثروا من الكلام فيه وهو لا ذنب له .

ويظهر كعب جلالة الموقف وهيبته ، فلو أن الفيل - هذا الحيوان الضخم كان مقام كعب لظل يرتجفُ خوفاً وهلعاً وهيبة من الرسول الأعظم ، إِن لم يكن هناك أمل بالعفو . وفي تصوير بديع جمعَ فيه كعب صورتين رائعتين للرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه)فوصفه معنوياً بالنور هدايةً ، وبالسيف قوةً وعزاً في الله ، وهو قَرَشيٌّ نسباً وهذا النسب شرف لكُلِّ عربي ، ومعه الصحابة في مكة مُطيعون لأمر الله ورسـولـه

وحين . أُذِنَ الله بالهجرة كان المؤمنون مُلبّين طاعة لله ولرسوله ، وهجرتهم هذه لا تعني ضعفهم ولا تعني أنهم هاربون خوفاً أو لأنهم لا يُحسنون صنعة الحَرب فهم الشرفاء الكرام الأبطال ، الذين يلبسون للحرب لبوسها ، فقد تحصّنوا بالدروع المشهورة المنسوبة إِلى داود (عليه السلام) .

لقد ألف المسلمون الانتصار ، فإِذا ما كسبوا معركةّ فلا يأخذهم الزهو والغرور وإِذا ما خسروا معركة لا يجزعون ، والجراح لا تكون إِلاّ في صدورهم كناية عن شجاعتهم وإِقدامهم ، فهم لا يفرّون من المعركة ، ولا يجبنون عند لقاء عدوِّهم .

إن القصيدة من روائع الشعر العربي وأشهره – وقد نهج نهجها الكثيرون وهي صادقة المشاعر ، قوية السبك ، جميلة التعابير ، وقد توّسل الشاعر – بما يمتلكه من شاعرية – إلى إيصال فكرته بالصور المعنوية والصور المادية ، مثلاً وصفه للرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) بالنور وبالسيف ، وتشبيهه لنفسه بالفيل المرتجف ، وكناية عن شرف المهاجرين بـ (شُمُّ الأنوف) ، وعن الشجاعة بـ (ليسُوا أنكاساً) .

ولفكرة القصيدة ، وللخيال الواسع الذي اتسع في صورها ، ولحسنِ التصوير والتجسيم ولصدق الأحاسيس وبكلِّ هذا وغيره امتلكت القصيدة خلودها .

أبو ذؤيب الهذلي

هو خويلد بن محرث ، من الشعراء المخضرمين (الذين عاشوا قبل الإِسلام وأدركوا الإِسلام) وكان شاعراً مشهوراً ذاع صيته في العهد الإِسلامي ، وقد مات وهو عائد من الجهاد في عصر الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بطريق مصر . وكان له خمسة أبناء بلغوا سنَّ الرجولة ومنحوه العزة والمنعة بأسهم وشجاعتهم ، هلكوا جميعاً في عام واحد بمرض الطاعون فبكاهم في قصيدته هذه .

قال في رثاء أولاده :

(للدرس والحفظ ٨ أبيات)

أمن المنون وريبه تتوجعُ	والدهرُليس بِمعتبٍ مَن يَجزعُ[١]
قالت أميمةُ ما لجسمكَ شاحباً	منذُابتُذلتَ ومثل مالك ينفعُ[٢]
أم ما لجنبكَ لا يُلائمُ مضجِعاً	إلا أُقضَّ عليك ذاك المضجِعُ[٣]
فأجبتُها : أمّا لجسمي أنهُ	أودى بنيّ مِن البلادِ فودعوا[٤]
أودى بنيَّ وأعقبوني غُصَّةً	بعد الرُّقادِ وعَبرةً لا تقلعُ
ولقد حرصتُ بان أدافع عنهُم	فإِذا المنيةُ أقبلت لا تُدفعُ[٥]
وإِذا المنية أنشبت أظفارها	ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع[٦]
وتجلدي للشامتين أريهمُ	أني لِرَيبِ الدهرِ لا أتضَعضعُ[٧]
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها	واذا تُردُّ إلى قليل تقنعُ
فلئن بهم فجعَ الزمانُ وَرَيبُه	إني بأهلِ مودتي لَمُفجَّعُ

اللغة

١ – المنون : الدهر .

– ريبه : صروف الدهر وأحداثه .

– معتب : مُنصف .

٢ – ابتذلت : امتُهنتَ .

٣ – أقض عليك : آلمك وأتعبك – والقضض : الحصى الصغار المتكسرة .

٤ – أودى : أهلك .

٥ – المنية : الموت .

٦ – تميمة : ما يعلق من حرز ونحوه . اعتقاداً بأنه يدفع الأذى .

٧ – أتضعضع : أضعف – أتزحزح .

التعليق النقدي

إنَّ الرثاء غرض قديم من أغراض الشعر العربي ، عرفه الشعراء لمواجهة حقيقة الموت وأبو ذؤيب الهذلي في قصيدته هذه يرثي أولاده بعد أن فقدهم في عام واحد واستهلها باستفهام ينكر فيه على نفسه أن يتوجع من الدهر وحوادثه عبر حوارية مع امرأة تسأله عن علة شحوب وجهه ، وأرقه فيجيبها أنها موت بنيه وما أعقب ذلك من غصة وبكاء ساعة يرقد الناس .. وفي أبياته ألم محض حتى إن بعضها صارت سائرة بين الناس لأنها تذكر الحقيقة الفاجعة في هذه الحياة(الموت) ومشاعر الناس إزاءها .

الخنساء

وهي تماضر بنت عمرو بن الشّريد من بني سليم ، والخنساء لقب لها وكان بنو سُليم يسكنون ما بين شمالي نجد والحجاز وقد تزوجت رواحة بن عبد العُزّى السُّلمي فولدت له عبد الله ثم خلف عليها مِرداس بن أبي عامر السلمي فولدت له زيداً ومعاوية وَعَمراً . قُتل أخواها معاوية وصخر قبل الإسلام ، كان معاوية شقيقها وكان صخر أخاها لأبيها طعنهُ أبو ثور الأسدي فاحتمل الطعنة عاماً ثم توفي متأثراً بها فحزنت عليهما حُزناً شديداً وبكتهما دماً ورثتهما بأروع القصائد حتى عميت . ولما جاء الإسلام وفدت الخنساء على الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) مع قومها وأنشدته من شعرها . وكان للخنساء أربعة بنين فلما سار المسلمون لفتح العراق جمعت بنيها الاربعة وحضّتهُم على القتال ونصرة الإسلام فخاضوا معركة القادسية واستشهدوا جميعاً فلمّا جاءها النعي بمصرعهم لم تزد على أن قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

تُعَدُّ الخنساء من أعظم شواعر العرب ، وشعرها مقطعات كُلّه ، وهو فصيح اللفظ رقيق السبك رائق الديباجة ، وقد غلب على شعرها الفخر قليلاً والرثاء كثيراً لما رأينا من فجيعتها بأخويها خاصة ، ورثاؤها واضح المعاني رقيق الألفاظ صادق العاطفة بدوي المذهب لكثرةِ ما فيه من التلهف والمبالغة في ذكر ممات أخويها .

قالت ترثي أخاها صخراً :

(للدرس والحفظ)

يــؤرقــني التـذكرُ حينَ أُمسي

فيردعنـي عن الأحزانِ نُكسي [١]

عـلى صخـرٍ وأيُّ فتّى كصخر

لـيـوم كــريهةٍ وطعانِ خَلسِ [٢]

ألا يا صخر لاأنــساكَ حـتى

أفـارق مــهجتي ويشق رمسي [٣]

يُذكرني طلوعُ الشّمسِ صخراً

واذكُرُهُ بــكلِ غـــروبِ شمسِ

فـلـولا كـثـرةُ الباكين حولي

عـلى إخـوانـهم لقتلتُ نفـسي

ولـكـن لا أزالُ أرى عَـجــولاً

وبـاكـيـةً تـنوح لـيـومِ نَـحــسِ

هُــمــا كلـتـاهما تَبكي أخاها

عــشــيــة رُزئـه أو غِــبَّ أمـــسِ

ومــا يبــكين مِثل أخي ولكن

أُعــزِّي الــنفـسَ عنـهُ بـالتأسِّي

فقـد ودّعـتُ يـوَم فراقِ صخرٍ

أبـي حـسّانَ لـذّاتـي وأُنـــسي

فيالهـفي عـلـيه ولـهفَ أمّي

أيصبحُ في الضريح وفيه يُمسـي

اللغة

١ – يؤرقني : من الأرق : وهو القلق وذهاب النوم.

٢ – خَلس الشيء : إذا استلبه .

٣– الرمس : القبر .

التعليق النقدي

حزنت الخنساء على أخويها – وبخاصة صخراً – حزناً خلّده شعرُها ، وأنها اشتهرت بالمقطّعات ، وهذه إحدى تلك القصائد التي تفصح عن عميق حزنها مُعّينةً زمن اشتداد حزنها بـ (المساء) حيث ينفرد الإنسان بنفسه .

إن حزنها على صخر لكبير ، لأنه رجل لا مثيل له – عندها – وأنّها لا تنساه حتى تفارق الحياة ، فهي تذكره عند طلوع كل صبح ، وعند كُلّ مساء ، وقد تتأسى الشاعرة بما تراه من فقد للناس فتعتبر وتتصبّر .

ولولا كثرة ذلك لعمدت إلى قتل نفسها حزناً على صخر ، ولكنها تتسلى حيث ترى الكثيرين يتوجعون ويبكون بكاءها. وتؤكد الشاعرة (ثانيةً) أنّ أخاها فاق رجال عصره ، وكان فقده أليماً لها ، فودّعت بتوديعه كُلّ مَلاذ الحياة ، وهي لا تكاد تصدق أنه استقر في القبر مسكناً . لقد جاءت الأبيات وهي تُفصح عن مشاعر وأحاسيس صادقة للخنساء في رثائها صخراً بألفاظ مفهومة وبأسلوب وتراكيب سهلة . وهذه السمات هي سمات غرض الرثاء الذي اشتهرت به الخنساء أو كادت تختص به .

مالك بن الريب

من مازنِ تميم ، كان يقطع الطريق مع (شِظاظ الضبّي) الذي يضرب به المثل فيقال (ألصُّ من شِظاظ) . حتى إنه حُبس بمكة في سرقة فشفع فيه شَمّاسي ابن عقبة المازني فاستنقذه . . . . . ثم لَحق بسعيد بن عثمان بن عفان ، فغزا معه خراسان ، فلم يزل بها حتى مات . ولما حضرته الوفاة قال يرثي نفسهُ :

(للدرس فقط)

ألاَ لـيـت شِـعـري هـل أبـيتَنَّ لـيـلةً
بجنب الغَضا أزجي القِلاصَ النَّواجيا (١)

فـليتَ الغضا لم يقطعِ الرَّكبُ عَرضهُ
ولَـيتَ الغَـضَا ماشى الرِّكَابّ لَياليا (٢)

لقد كانَ في أهلِ الغضَا لو دَنَا الغضا
مَـزارٌ ولـكـنَّ الـغَـضَا لـيـس دانـيـا

ألَـم تَـرنـي بِعـتُ الضَـلالـةَ بـالهُدى
وأصـبـحـتُ فـي جَـيش ابنِ عفَّان غازيا

تـذكـرتُ مَـنْ يِـبـكـي عليَّ فلم أَجدْ
سِوى السَّيفِ والـرُّمـح الرُّدينيِّ باكيا (٣)

وأشـقـرَ مَـحـبُـوك يَجُـرُّ عِـنـانـهُ
إلـى الـماءِ لـم يـتـرُك لَـهُ الموتُ ساقيا(٤)

صَــريــعٌ عــلـى أيـدِي الـرَّجالِ بقَفرةٍ

يُـسـوُّونَ لحـدي حَــيــثُ حُمَّ قضائيا (٥)

ولمـــــا تـــرآءت عند (مَرو) مَنيّتي

وحَلّ بــهـا جِـــسمـي وحانَت وفَاتياَ(٦)

أقُـــــولُ لأصحابِي ارفعُوني فإِنَّنـــي

يــقـرُّ لِــعَيـني أن سُـــهيلٌ بَــدا لـــيا

ويــــا صاحبَي رَحلي دَنَا المَوت فانزِلاَ

بِــرابـيَـةٍ إِنـــي مُـــقـــيـمٌ لـيـاليا

أقـيـمـا عـليَّ الـيومَ أو بعضَ ليـــلةٍ

ولا تُـــعـجـلاني قـــدَ تـبـيَّنَ مَـابـيا

وَخُـــطَّا بـــأطرافِ الأسنَّةِ مَضجَعي

ورُدَّا عـــلَـى عـيـنيَّ فَضلّ رِدائيا (٧)

ولا تحــــسداني بـــارك الله فـيـكما

مـن الأرضِ ذاتِ العـرضِ أن توسِعَا ليا

خُــذانـي فـجُرّاني بِبُردي إِليكما

فقـدَ كنـــتُ قــبلَ اليومِ صَعباً قيادِيا

وقـــد كنْتُ عَطّافاً إذا الخيلُ أدبرت

سَرِيعاً لدى الهيجاء إلي من دَعانيا (٨)

اللغة

(١) الغضا : شجر ينبت في الرمل – أزجي :أدفع ، أسوق .–النواجي : النوق السريعة .

(٢) الركاب : القافلة .

(٣) الرمح الرديني : نسبة إلى امرأة اسمها (ردينة) كانت تصنع الرماح .

(٤) أشقر محبوك : من الجياد الأصيلة ، لونه أشقر .

(٥) قفرة : أرض خالية .

(٦) حانتِ : دنت وقربت .

(٧) الأسنَّة : أطراف السلاح .

(٨) الهيجاء : الحرب .

التعليق النقدي

قصيدة مالك بن الريب هذه أشهر قصائده لما حفلت به من معانٍ وصورٍ وما قيل فيها من أقوال بأسلوب أدائها ومناسبتها وما حيك حولَ هذه الأخبار من الأساطير وما أُثير في شأنها من أقوالٍ معبرة عن فروسيته التي حددت المعالم المشتركة في الاداء والحديث والشعر بعد أن أعطى للسلاح دوره وللتضحية قوتها ورسم مالك من خلال القصيدة الحقيقة التي تلازم الإنسان والمسأله التي لا يمكن أن تفارقه في كلِّ زمن . رسم ابن الريب منذ أبياته الأولى نزوعه الإنساني .

وصوَّر أرضه التي شبَّ فيها فارتسمت في ذهنه ملامح الغضا واتضحت أبعاد تلك الشجيرات وهي تتضاءل في ناظريه بعد أن امتدت به المسيرة ، وتجلت شخوص أهله بعد أن أوشكت راحلته على الابتعاد عنهم . وتعالت في نفسه نوازع الحنين إليهم وبدأت هواجس الأهل والصحبة والأبناء تأخذ طريقها أعلاماً متحركة ونفوساً متلهفة تبدو عليها معالم الشوق .

إن الحالة النفسية التي كان يعانيها وهو يجود بنفسه لم تبعده عن ذكريات الأرض التي ترعرع فوقها ، وشبَّ في ربوعها ووديانها ، وإنما كان يطلب من أصحابه أن يخطوا مضجعه بأطراف الأسنة ويردوا عليه بقية الرداء لينعم بالراحة بعد أن أدى واجبه وذكر أهله وأرضه والتقى معهم في عيون النجوم الثاقبة والسماء العريضة . إن صوت الشاعر هو صوت الحياة الكريمة التي عاشها هذا الفارس ، وهو صوت البطولة التي قَدمَ من أجلها أعز ما يملك ، وهو صوت الحنين إلى الأرض التي لم تغرب عن باله لحظة واحدة وقد ظلت هذه الأصوات تتعالى .

عِبْرَ الزمن الطويل وترتفع على الرغم من الزمن لتسجل له حبه وتؤكد من خلالها وجوده الإنساني وأصالته العربية وتطلعه السامي من أجل هذه الأمة الكريمة التي ظل مالك بن الريب من شوامخ روعتها وأعلام مجدها .

٢ – النثر

كان الشعر في العصر السابق للدعوة الإسلامية اللسان المعبر عن الحياة العربية في كُلِّ المجالات . وعندما جاء الإسلام ازدهر فن النثر إلى جانب الشعر ونهض بأعباء الفكر الجديد ، يُبشِّر به ، ويدعو إليه ، ويحاجج خصومه ويجادلهم .

فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) إلى الإسلام بالنثر ، وبه ثقّف أتباعه وبصّرهم بمبادئ الدعوة وناظر خصومهم وأفحمهم وانتصر عليهم ثم اتخذ منه وسيلة لإيصال الدعوة إلى خارج مكة ، بالكتابة حيناً ، وبالخطابة أحياناً أخرى ، وبعد قيام الدولة الإسلامية استخدم الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) النثر في كتبه وعهوده ووصاياه فكان النثر وسيلة له وللخلفاء والأمراء والولاة والقادة ، ومعروف أن أعلى درجات البلاغة في نثر صدر الإسلام كان خاصاً بالقرآن الكريم ثم الحديث النبوي الشريف .

وإنَّ جميع الكتَّاب والخطباء ترسم طريقهما في البلاغة والفصاحة وخير ما يمثل نثر هذه الفترة أدب الخطابة ، وأدب الرسائل ، فكان ازدهارهما كبيراً لما كانا يؤديان من مهمات متعددة ومتنوعة في ظل الدولة العربية الإسلامية الجديدة .

أ– الخطابة

لم تكن عناية العربي قبل الإِسلام بالخطابة كبيرة ، لأنه كان يعتمد الشعر للتعبير عمّا يجول في خاطره ، ويدور في صدره ، فلم يصل إِلينا منها إلا نماذج محدودة في عددها وموضوعاتها وآفاقها . وعندما جاء الإِسلام تهيأ في ظله ما لم يتهيأ لأي فن من الفنون الأدبية الأخرى ، للظروف التي طرأت على الحياة العربية من حيث اعتمادها المحاججة والمجادلة والشرح والإِقناع والتبصير .

كانت تسير على نهج القرآن الكريم في تثبيت العقيدة الدينية ومناقشة أفكار المشركين، وكانت وسيلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) وعُدته وهو يعرض نفسه على القبائل والأحياء العربية في مواسم الحج والأسواق والمناسبات التي تعقد في مكة وحولها. ومن البديهي أن تُرصَّع كلماته بآي الذكر الحكيم ، وأن يتوسع في كُلِّ تلك الآيات سائراً على نهج القرآن الكريم في الدعوة إِلى الدين الجديد بعد أن نزل قوله تعالى :

P W W ‰ W W ˆ W W ‡ W W † W Q

(الشعراء / ٢١٤)

حتى صدع رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) لهذا الأمر ، فارتقى جبل الصفا ثم نادى: يا صباحاه[١] فاجتمع الناس عليه ، فهدر يخطب فيهم : (يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدِّقيَّ ؟

[١] :ياصباحاه : عبارة تردد عند وقوع غارة أو أمر جسيم .

قالوا : نعم . ما جرّبنا عليك كذباً .

فقال : (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) .

وما يلبث أن ينتقل إلى يثرب حتى تتطور تلك الخطابة من حيث أغراضها ومعانيها بما يناسب حياة المسلمين الجديدة ، فصارت وسيلة للتشريع وإرساء أسس الدولة الجديدة، وسلاحاً ماضياً لشحذ همم المجاهدين . وأضحت فرضاً مكتوباً على المسلمين في صلاة الجمعة والعيدين ، فهي تسبق الصلاة يوم الجمعة وتعقبها في العيدين . ولهذه الخطب سنن وتقاليد بيّنتها كتب الحديث النبوي واحتفظ بها الناس إلى هذه الأيام . ويتصدر خطباء هذا العصر الرسولُ العربي (صلى الله عليه وآله وصحبه) الذي كان يخطب على هدي القرآن الكريم بعد ان تشرّب بروحه واستوعب معانيه ، وقد أوتي من الفصاحة والبلاغة واللسن ما لم يؤت غيره من الناطقين بها .

فكان يخطب في المسلمين واعظاً أو مشرعاً وقد يجمع بين الوعظ والتشريع بأسلوب رائع ، ونسج بليغ ، فقد أُوتي جوامع الكلم . وعرف إلى جانب رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) كثير من الخطباء في تلك المرحلة ، كالخلفاء الراشدين الذين كانوا في الذروة من الفصاحة والتمكن من ناصية القول بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) ، فقد سرت في أساليبهم روح القرآن الكريم وبلاغته ، وتسرّب إلى قلوبهم تأثير حديث رسول الله فخالط ذلك كلماتهم . واستمدوا منه خطبهم.

كما عرف هذا العصر خطباء آخرين ، ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس الذي كان يسمى (خطيب النبي) .

وسعد بن الربيع وأبو عبيدة الجراح وخالد بن سعيد بن العاص . وأسهمت المرأة العربية بدور فَاعل في خطب هذا العصر فبرزت خطيبات بارعات كأم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) والسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وأم الخير بنت الحريش . كان من خطباء المشركين عتبة بن ربيعة وضمضم بن عمرو الغفاري . وقد ضاعت أكثر خطب المشركين ، كما ضاعت أشعارهم التي قيلت في تلك المرحلة. أما الأغراض التي تناولتها الخطابة في هذا العصر فهي الغرض الديني في الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الإسلام ، وبيان الأحكام الدينية والغرض السياسي في شرح المسائل السياسية المتصلة بمنصب الخلافة والإمارة أو توضيح مناهج الدولة السياسية ، والعسكرية فيما يلقيه القادة على جيوشهم للحث على الجهاد وعند الالتقاء بالأعداء ، وربما تطرق بعض الخطباء إلى الأمور الثقافية والاجتماعية .

ويمكن أن نلخص الخصائص العامة التي كانت تميز الخطبة في صدر الاسلام بالآتي:

١ - شيوع الطابع الديني ، واستعانة الخطباء المسلمين بألفاظ القرآن الكريم وروحه حتى كانوا يعدون خلو الخطبة من القرآن الكريم ، ينزل بها عن الاجادة ويُقللُ قيمتها .

قال بعض خطباء هذا العصر : خطبت خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية ولم أدع لطاعن علة ، فمررت ببعض المجالس ، فسمعت شيخاً يقول : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن الكريم .

وتُعرف الخطبة الخالية من القرآن بـ (الشوهاء) ، وربما جعل بعض الخطباء خطبته كُلّها قرآناً ، كما فعل مصعب بن الزبير حين قدم إلى العراق .

٢- التخفف من السجع الذي كان يثقل خطب ما قبل الاسلام ، وبخاصة ما يُدعى بسجع الكهّان ، الذي يدعو إلى ضرب من معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل بألفاظ غريبة غامضة ذات جرس وإيحاء .

٣ – اختفاء المفاخرات والمنافرات القديمة التي حاول الإسلام إماتتها بالدعوة إلى الوحدة .

٤ – وحدة الفكر والموضوع التي تفتقر إليها خطب ما قبل الاسلام .

٥ – الإيجاز مع البلاغة ، فقد أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) بتقصير خطب الجمعة وأوصى أبو بكر (رضي الله عنه) أحد قادته : إذا وعظت جندك فأوجز ، فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً .

٦ – السلاسة والوضوح مع الجزالة .

٧ – قصر الفقرات ، وتناسق الفواصل .

٨- أما بناء الخطبة الفني فيبدأ عادة بحمد الله وتمجيده فالصلاة على الرسول وقلَّ أن نجد خطبة تخلو من هذه المقدمة ، حتى سميت الخطبة الخالية من هذه المقدمة بالبتراء وتقترن بكلمة (أما بعد) ثم ينتقل الخطيب إلى موضوع الخطبة ويختمها بالحمد والسلام .

من خُطبة حِجَّة الوداع *

(للدرس والحفظ ٧ أسطر)

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) :

(الحمد لله نحمدُه ، ونستعينُه ، ونستغفرُه ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيّئات أعمالنا ، مَن يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومن يضلل فلا هاديَ له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم ، عباد الله ، بتقوى الله ، وأحُثكم على طاعته ، وأستفتحُ بالذي هُو خيرٌ .

أمّا بعد : أيُّها الناسُ ، اسمعوا مني أُبيّن لكُم ، فأنّي لا أدري ، لعلّي لا ألقاكُم بعدَ عامي هذا ، في موقفي هذا . أيها الناسُ إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم إلى أَن تلقوا ربَّكم ، كحرمةِ يومكُم هذا ، في شهرِكم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلَّغت ؟ اللهمَّ اشهد . فمن كانت عندهُ أمانةٌ فليؤدِّها إلى الذي ائتمنهُ عليها وإن رِبا الجاهليَّةِ موضوعٌ ، وإن أوَّلَ رِباَ أَبدأُ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب وأنَّ دماءَ الجاهليَّةِ موضوعةٌ ، وإن أوَّلَ دمٍ نبدأُ به دمُ عامرِ بنِ رَبيعة بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطلب ، وإنّ مآثر الجاهلية موضوعة" غير السِّدانةِ والسِّقايةِ .

---

* السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٦٠٣ - ٦٠٤

والعَمدُ قودٌ ، وشبهُ العَمدِ : ما قُتلَ بالعصا والحجرِ وفيه مئةُ بعيرٍ ، فمن زاد فهو من أهلِ الجاهليَّةِ .

أيُّها النَّاسُ ، إِن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضِكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مّما تحتقرون من أعمالكم ....

أيُّها النَّاسُ ، إِنّما المؤمنون إِخوة ، ولا يحلّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إِلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلّغتُ / اللّهُمَّ اشهد . فلا ترجعُنَّ بعدي كُفّاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، فإِنّي قد تركت فيكم ما إِن أخذتم به لن تضلّوا بعده : كتاب اللّهِ . ألا هل بلّغت ؟ اللّهُمَّ اشهد. أيُّها النَّاسُ ، إِنّ ربَكم واحدٌ وإِن أباكم واحدٌ ، كلّكم لآدم ، وآدم مِن تراب ، إِن أكرمكم عندَ اللّهِ أتقاكم وإِنّ اللّه عليم خبيرٌ . وليس لعربيّ على أعجميّ فضلٌ إِلاّبالتقوى . ألا هل بلّغت ؟ اللّهُمَّ اشهد .قالوا : نعم .

قال : فليبلّغ الشاهدُ الغائب .

اللغة

- موضوع : باطل ساقط .
- المآثر : ما يرثه الخلف من السَّلف من الأفعال والأقوال .
- السّدانة : خدمة الكعبة .
- السقاية : ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء .
- العمد : القتل عمداً .
- القَود : أي قِصَاص ، أي مَنْ قتل عمداً يُقتل .
- عن طيب نفس منه : بموافقته وبلا إكراه .

التعليق النقدي

ارتجل رسول الله (ﷺ) هذه الخطبة في موسم الحج ، وهي آخر خطبة ودّع فيها المسلمين في السنة العاشرة ، لذلك سميت خطبة الوداع . نهى الرسول (ﷺ) المسلمين في هذه الخطبة عن الظلم والعدوان والعادات والتقاليد القديمة المضّرة صاغها بأسلوب سهل ومعانٍ واضحة ، محتذياً فيها أسلوب القرآن الكريم وطريقة تصويره.

فابتدأ بأسلوب تقريري ليُنبّه الأذهان ويحرّكها للجواب وكان عن الشهر واليوم والبلد ، وهي ثلاثة معروفة شبه بها اثنين يُراد تقرير تحريمهما في نفوس السامعين ، وهما دماء المسلمين وأموالهم .

وقد جعل الرسول العيش الصالح بسماع أقواله ،وامتثال أوامره والقبول بها ،فقال :

(اسمعوا منّي أبيّن لكم) . أي أبيّن لكم سبل العيش الصالح الذي ينشده كُلُّ إنسان .

ولكي تسود المحبة ويعمّ الوفاق بين أفراد المجتمع نهاهم عن الظلم بكُلِّ ألوانه فالاستيلاء على مال الآخرين بلا رضاهم ظلم . وقتل النفس البريئة ظلم والتمتع بامتيازات موروثة عن الآباء ظلم .

وحرم عليهم الأخذ بالثأر ، لانه يشق الصف ويورث الشقاق . ونهاهم عن الربا لانه ظلم وربح بلا جهد ، مبتدئاً بأقرب الناس به . وحذّرهم من مكايد الشيطان منبهاً على وجوب التزام اليقظة والحذر من وسائل إفساده للأخوّة بين المسلمين وتفريق صفوفهم ، بعد أن عجز عن تكفيرهم وإشراكهم . وقد يكون الشيطان من الجن أو الإنس . وجعل تلك الفرقة لوناً من الكفر ودعاهم إلى تأدية الأمانات إلى أصحابها ، وأن يبلّغ كُلّ منهم الرسالة الإسلامية الخالدة إلى الناس كافة .

وصية أبي بكر (رضي الله عنه) :

(للدرس فقط)

أوصى الخليفة أبو بكر جيش أسامة بن زيد حين سيّره إلى الشام بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) فقال : (يا أيها الناسُ قفُوا أوصيكم بعشرٍ ، فاحفظُوها عنّي لا تخونوا ولا تُغلّوا، ولا تَغدروا ، ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقعروا نَخلاً ، ولا تُحرقُوهُ ، ولا تقطعوا شَجَرةً مُثمرةً، ولا تَذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرُّون بأقوامٍ فَرَّغوا أَنفسهم في الصَّوامعِ فَدعُوهم وما فرَّغوا أَنفسّهم لهُ . [1]

اللغة

تغلوا : تخونوا في الفيء .

تمثِّلوا : تُنكِّلُوا .

تقعروا : تستأصلوا وتقطعوا .

الصوامع : واحدها صومعة : مكان رهبان النصارى .

(١) تاريخ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري / ج٣ / ٢١٣ .

المعنى العام

هذه أول وصية للخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) بعد توليه الخلافة عَبَّرَ فيها عن روح الإسلام وتعاليمه السامية . فأوصى المسلمين ألاَّ يتخلوا عن المبادئ والقيم في غمرة انتصاراتهم على العدوِّ . وطلب إليهم ألَّا يخونوا ولا يغدروا ولا يُمثِّلوا بقتيل أي يقطعون أنفه أو أذنه أو شيئاً من أطرافه وفي الحديث أن الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) نهى عن المثلة . كما نهاهم عن قتل الصغير والشيخ الكبير والمرأة ، وعن إفساد الزرع واستحلال مال الآخرين إلاّ من أجل الطعام .

وأن يحترموا الأديان ويتر كوا من تفرّغ للعبادة من الرهبان .

ب- الكتابة

عرف العرب الكتابة قبل الإسلام ولكنها كانت محدودة الانتشار وفي أعداد قليلة منهم ، وبعد انتشار الإسلام بينهم بدأت الكتابة تنتشر في مختلف أوساط المجتمع ، لازدياد الحاجة إليها ، وللتطور الكبير الذي حدث في حياة العرب فاتسعت آفاقها . وقد نوّه الإسلام بالكتابة وحثَّ عليها في كثير من الآيات والأحاديث والمواقف العملية.

ومن أكبر مظاهر الكتابة في هذا العصر (الرسائل) التي بدأت في عصر مبكر من حياة المسلمين ، فاتخذ الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) كتّاباً متخصصين لكتابة الرسائل النبوية وواظب بعض الكتّاب على الكتابة له مثل زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وكتب له بعضهم في مناسبات معينة مثل شُرَحْبِيل بن حسنة وحنظلة بن الربيع الكاتب .

كانت الرسائل وسيلة مهمة لاداء حاجات الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) السياسية والدينية إذ كتب الرسائل إلى رؤساء القبائل العربية أو الطوائف الدينية في الجزيرة وما جاورها ، يدعوهم إلى الإسلام ، وكاتب ملوك الدول المجاورة كقيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس القبط في مصر والنجاشي ملك الحبشة، كما اتخذها وسيلة لمعالجة الموضوعات التشريعية والتوجيهية في أمور حياة المسلمين المختلفة وفي عصر الراشدين ظلت الرسائل امتداداً للرسائل النبوية مع تطور يناسب ما استجد من أحداث ، سواء من حيث معانيها أم موضوعاتها ، إذ استجدت ألوان لم تُعرف من قبل، مثل الرسائل الحربية والإخوانية والإدارية والسياسية .

وأبرز ما يميز رسائل هذا العصر :

١ – بُعدها عن التصنع والتزويق ، لأنها كانت تُملى إملاء .

٢ – صدق العاطفة والإحساس .

٣ – جمال الصورة والتألق في الخيال .

٤ – اقتباس الآيات القرآنية الكريمة ، وتضمين الأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والأشعار .

٥ – سهولة الألفاظ وفصاحتها ، والوضوح في المعنى ، والإيجاز غير المخل .

٦ – خلوها من عبارات التفخيم .

٧ –أما بناؤها ، فكانت تُستهل بالبسملة ، وأحياناً باسمك اللهمَّ ، ويصَّرح باسم المرسِل والمرسَل إليه ، من غير تعظيم أو تفخيم فالسلام والتحميد والتشهد أحياناً ثم التخلُّص إلى الغرض الأصلي بـ (أما بعد) وتختم بالسلام والدعاء .

وأبرز كُتابُ هذا العصر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) الخلفاء الراشدون والولاة والقادة كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح .

نصوص من القرآن الكريم

قال تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(آل عمران / ١٠٣)

اللغة

اعتصموا : تمسَّكوا .

حبل الله : دينه ونهجه ، وقيل الجماعة .

فألَّفَ : فجمع ووحَّد .

شفا : طرفٌ وحافةٌ .

آياته : علاماته وعجائبه .

المعنى العام

وحّد الإسلام بين القبائل العربية ومنها الأوس والخزرج في يثرب . فانقلبت العداوة بعد الإسلام إلى أخوّة ومحبَّة ، وقد مرّ رجل من اليهود بقوم من الأوس والخزرج بعد الإسلام، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم (بُعاث) (وهو من أيام الحرب بينهم قبل الإسلام) ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض، وثأروا ، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتوعدوا إلى منطقة (الحرة) خارج المدينة ، فبلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) فأتاهم، فجعل يسكنهم ويقول : (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) . وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح. دعا المسلمين في هذه الآية إلى الألفة والمحبَّة ، وأن يتمسكوا بدينه وقرآنه ليتوحدوا.

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) : إنّ هذا القرآن هو حبل الله ، ونهاهم عن الفرقة لأن الفرقة هلكة والجماعة نجاة . . وذكرهم بإنعامه عليهم ، حيث كانوا أعداء متخاصمين يقتل بعضهم بعضاً فجمع بالإسلام قلوبهم فصاروا بنعمته إخواناً في الدين ، وكانوا على وشك السقوط في النار ، ليس بينهم وبينها قبل إسلامهم إلاّ أَنْ يموتوا كفّاراً فأنقذهم بالايمان . وهذا تمثيل يُراد به خروجهم من الكفر إلى الايمان . وقد ضرب الله لهم هذا المثل للتذكّر والرشاد .

قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

(فصلت / ٣٣-٣٥)

اللغة

تستوي : تتماثل وتتساوى .

وليّ : صديق محب .

حميم : قريب .

وما يلقاها : وما يعطى دفع السيئة بالحسنة .

ذو حظ : ذو نصيب من الخيرات .

المعنى العام

أي كلام أحسن من كلام الله سبحانه وتعالى ؟ ومَن أحسن قولاً من الداعي إلى اللهِ وطاعته ؟ والكلمة الطيبة وحدها لا تكفي إن لم تقترن بالعمل الصالح وبالاستسلام لخالق الكون وعبادته. ولا يهم مَنْ يدعو إلى الخير الّا يستجاب له ، أو أن يُرد عليه بسوء الأدب . إذ لا تتساوى الحسنة التي قالها مع السيئة التي قوبل بها، فمتى عرف المسلم ذلك فسيقابل غضب المسيء بالصبر وجهله بالحلم وإِساءته بالعفو. قال ابن عباس : « ادفع بالتي هي أحسن » أي ادفع بحلمك جهل مَن يجهل عليك . فيصير العدّو الأحمق كالصديق القريب في محبته فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه .

قال الشاعر :

وما شيءٌ أحبُّ إلى سفيهٍ	إذا سبَّ الكريمَ من الـجوابِ
متاركةُ السفيهِ بلا جوابٍ	أَشدُّ على السفيه من السبابِ

ولا ينال هذه الخصلة الكريمة إلا الذين يكظمون غيظهم ، ويحتملون الأذى بالصبر ، ممن لهم نصيب وافر من الحظ الموهوب الذي يمنحه الله من يحاول من عباده فيستحقه .

وهذه السماحة قاصرة على حالات الإِساءة الشخصية ، لا حالات العدوان على العقيدة والأمة والوطن ، فعند ذلك يكون الدفع بالقوة والمقاومة بكُلِّ صورة حتى يرتعد المعتدون، وتسلم الحقوق .

نصوص من الحديث النبوي الشريف

١ - النهي عن الغش　　　　للدرس فقط

مر رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) على صبرة طعام ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله ، قال : أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غش فليس مني .

(رواه مسلم)

اللغة

الصبرة : الكومة المجموعة من الطعام .

أصابته السماء : أصابه المطر .

ليس مني : ليس ممن اهتدى بهديي ، واقتدى بعلمي واتصف بأخلاقي .

المعنى العام

يضرب الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) في هذا الحديث مثلاً رائعاً باستخدامه العبارة الموجزة البليغة (من غش فليس مني) من أجل بناء علاقات إنسانية سليمة ، ناهياً عن الغش والاحتيال كونهما يعبران عن فساد ضمير . والإضرار بالآخرين، وإضعاف الثقة بين أبناء المجتمع ..... لذا فهو يوجه النفس البشرية إلى كبح جماح شهواتها المادية ، وتجنب الاستغلال والابتعاد عن التزييف والكسب غير المشروع ..

٢ - الإِسلام الصحيح

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال :

قلتُ : (يا رسول الله ، قل لي في الإِسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك)

قال : (قُل آمنتُ باللهِ ثم استقم) .

رواه مسلم

اللغة

في الإِسلام : في تحديد حقيقته الشرعية .

عنه : عن الإِسلام .

استقم : اسلك الطريق القويم الذي لا عِوج فيه ولا انحراف ، لأن الاستقامة مأخوذةٌ من القيامِ وهو الاعتدال وعدم الاعوجاج .

المعنى العام

عندما سأل هذا الصحابي رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) عن حقيقة الإسلام ، وأراد منه جواباً يغنيه عن سؤال غيره مدى الحياة أجابه الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) بكلمة موجزة جامعة : قل آمنت بالله ثم استقم . لأن الإيمان بالله أصل الدين وأساسه .

والاستقامة هي ما يتبع الايمان (أي الإقرار بالقلب واللسان) من طاعة الله والعمل بأوامره ، والوقوف عند نواهيه .

وهي كما تكون في الأعمال تكون في الأخلاق والأحكام والآراء .

والجواب في جملته مقتبس من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(الاحقاف / ١٣)

رسالة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى أبي موسى الأشعري *

(للدرس والحفظ : ٥ أسطر ... إلى في عدلك)

كتب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)إلى أبي موسى الأشعري رسالة في القضاء حين ولاه قضاء البصرة ، جاء فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلامٌ عليك ، أما بعدُ :

فإنَّ القضاءَ فريضةٌ مُحكمةٌ ، وسنَّةٌ متَّبعةٌ . فافهم إذا أُدلي إليكَ فانه لا ينفعُ تكلُّمٌ بحق لا نفاذَ لهُ . آس (١) بين النَّاس بوجهكَ ، وعدلك ، ومجلسكَ حتَّى لا يَطمع شريفٌ في حيفكَ (٢) ، ولا ييأس ضعيف في عدلك .

البيِّنة (٣) على من ادعى ، واليمينُ على من أنكر . والصُّلحُ جائزٌ بين المسلمين إلاَّ صُلحاً أحلَّ حراماً ، أو حَرمَّ حلالاً . لا يمنعنَّكَ قضاءٌ قضيتهُ اليوم فراجعتَ فيه عقلكَ وهُدِيتَ فيه لرشدكَ .

أن ترجعَ إلى الحقِّ ، فإنَّ الحقَّ قديمٌ ، ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل الفهمَ الفهمَ فيما تلجلجَ (٤) في صدرك مما ليس في كتابٍ ولا سُنَّةٍ ثم اعرف الأشباه والأمثالَ فقس الأمور عند ذلك .

---

* الكامل للمبرد / ج١ / ١٢

واعمد إِلى أقربها إِلى الله ، وأشبهها بالحقِّ . واجعل لِمن ادّعى حقّاً غائباً أو بيِّنةً أمداً ينتهي إِليه ، فإِن أحضر بيِّنتهُ أخذت له بحقِّه وإِلا استحلَلْت عليه القضيّةَ فإِنّه أنفى للشكِّ وأجلى للعمى . المسلمون عُدولٌ بعضُهم على بعضٍ إِلاَّ مَجلوداً في حدٍّ أومُجرباً عليه شهادةُ زُورٍ ، أو ظنيناً (٥) في ولاءٍ أو نسبٍ ، فإِنَّ الله تولىَّ منكمُ السرَّائر . ودرأ (٦) الحدودَ بالبيناتِ والايمانِ .

وإِياكَ والغلقَ والضَّجر (٧) والتأذِّي بالخصومِ والتّنكرَ عندَ الخصوماتِ ، فإِنّ الحقّ في مواطنِ الحق ليُعظمُ اللهُ به الأجر ، ويُحسنُ الذُّخرَ .

فمن صَحَّت نيَّتُهُ وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تَخلَّفَ للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانَهُ ، فما ظنك بثواب غير الله عزّ وجل في عاجلِ رزقه وخزائن رحمته . والسلام .

اللغة

(١) آسِ : من المؤاساة : بمعنى المساواة ، أي سوّ بين الناس .

(٢) الحيف : الظلم .

(٣) البينة : الحجة والدليل .

(٤) تلجلج : تردّد .

(٥) الظنين : المتهم .

(٦) درأ : دفع .

(٧) الغلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر .

المعنى العام

جعل خلفاء صدر الدولة العربية الإِسلامية الحقّ والعدل نُصب أعينهم فألزموا بهما أنفسهم ودعوا إِليهما الولاة والقضاة . ورسالة عمر (رضي الله عنه) في القضاء واحدة من رسائل كثيرة خاطب بها الخلفاء ممثليهم في الادارة والحكم والقضاء .

وقد وصف المبّرد هذه الرسالة فقال ، (جمع فيها جُمل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس يتخذونها بعده إِماماً ، ولا يجد محقٌّ عنها مَعدلاً ، ولا ظالم عنها محيصاً).[1]

(القضاء فريضة ..)

يريد أن ما يحكم به الحاكم نوعان : فرض محكم في كتاب الله ، وأحكام سنَّها رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) .

(فافهم ......) .

اي عليك بفهم ما توصل إِليك من الكلام الذي تحكم به بين الخصوم .

(فانه لا ينفع ....) .

يريد الحث على تنفيذ الحقّ إِذا فهمه الحاكم ، ولا ينفع تكلمه به اذا لم يكن له قوةٌ تنفذه ، فهو تحريض منه على العلم بالحقِّ والقوة في تنفيذه .

(وآسِ بين الناس ......) .

---

(١) الكامل للمبرد / ج١ / ١٢

إذا عدل الحاكم في هذا بين الخصمين فهو عنوان عدله في الحكم لكيلا يطمع الشريف ذو النفوذ في أن يكون الحكم له فيتقوى وييأس الضعيف من عدله فيضعف وتنكسر حجته .

(والصلح جائز ...) .

مأخوذ من حديث الرسول (ﷺ) : « الصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً حرّم حلالا أو أحلَّ حراما ، والمسلمون على شروطهم ، إلا شرطاً حرمّ حلالا أو أحلَّ حراماً » .

وقد ندب الإسلام إلى المصالحة بين المسلمين عند التنازع حتى في الدماء . فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يُعتمد فيه رضا الله ورضا الخصمين .

(ولا يمنعنك ....) . يريد اذا اجتهدت في حكم ، ثم وقع لك أمر مرّةً أُخرى فلا يمنعنك الاجتهاد الأول من إعادته ، فان الاجتهاد قد يُغيّر ولا يكون الاجتهاد الأول مانعاً من العمل بالثاني إذا ظهر أنه الحقّ . فإن الحقّ أولى بالاتباع

(الفهم الفهم ...) .

تدعو الرسالة إلى التزام العقل ، وتحكيم الفهم فيما لم يرد في حكمه نص من قرآن أو حديث ، ومعرفة أشباه لتلك الحادثة فيقيس عليها وهو ما يسمى بالقياس

(واجعل لمن ادعى ....) .

من العدل أن تعطي مهلة لمن ادعى فإن المدعي قد تكون حجته أو بينته غائبة ، فلو عجَّل عليه بالحكم لَبَطَلَ حقّه ، فإن سأل أحدٌ أن يحضر فيه حجته أُجيب إلى ذلك (المسلمون عدول ...)

تقبل شهادة أي مسلم ، لأن المسلمين شهود عدول ، إلا مَنْ قام به مانع الشهادة وهم : مَنْ جُرب عليه شهادة الزور ، أي الكذب ، فلا يوثق بشهادته لان شهادة الزور من أفعال الكبائر . ومن جُلد في حدٍّ شرعي ، وفُسر هذا الحدُ بالقذف . ومن يُتهم بأن يجرَّ إلى نفسه نفعاً من المشهود له .

(فإن الله تولى ...) .

مَنْ ظهرت منه علانية خير ، قُبلت شهادته ، ووكلت كلّها إلى الله . والعقوبة تُدفع عن المتهم إلا إذا قامت البينات والأدلة والشواهد والأيمان (جمع يمين) في بعض الحالات . (وإياك والغلق ...) .

ويحذره من التأذي بالخصوم في أثناء المرافعة أو التنكر لأنَّ الله سوف يضاعف له الأجر لو اصطبر عليهم بالعدل بينهم .

(فمن صحَّت نيَّتُهُ ....) .

إذا أخلص الإنسان في نيته عند الحكم ، فإن الله يحميه من الناس فلا يستطيعون إيذاءه، وإن حاول مجاملتهم فلم يلتزم بالحقِّ فإن الله سوف يفضحه أمام النّاس.

من رسالة الإِمام علي (عليه السلام) إِلى مالك بن الأشتر*

(للدرس والحفظ خمسة أسطر من : وأشِعر قلبك، إِلى ... وابتلاك بهم)

وأشعِرْ قَلبكَ الرحمةَ للرعيةِ ، والمحبةَ لهم ، واللّطفَ بهم . ولا تُكونَنَّ عليهم سَبُعاً ضارياً[١] تغتنمُ آكلَهم ، فإِنهم صِنفان إِمّا أخٌ لك في الدين وإِما نظيرٌ لكَ في الخلقِ يَفْرُطُ[٢] منهم الزلَلُ وتعرض لهمُ العِلَلُ ، ويؤتَى على أيديهم في العَمدِ والخطأ .

فأعطِهم مِنْ عَفوكَ وصَفحِكَ ، مِثلَ الذي تَحبُّ أن يعطيك اللّه من عفوهِ وَصَفحِه ، فإِنَّكَ فوقَهمُ ، ووالي الأمر عليكَ ، واللّه فوقَ مَنْ وَلاّك ، وقد استكفاك امرَهُم وابتلاك[٣] بهم ، ولا تَنصِبَنْ نفسَك لحربِ اللّه فإِنّه لا يَدَلَكَ بنقمتِه ولا غِنى بِك عن عفوه ورحمتِه، ولاتندَمنّ على عفو، ولا تبجحنّ[٤] بعقوبة ولا تُسرِعَنّ إِلى بادرةٍ وَجَدْتَ منها مندوحة[٥] ، ولا تقولن إِني مُؤمَر آمرُ فأطاعُ، فإِن ذلك إِدغالُ[٦] في القلبِ ، ومنهكة للدين ، وتَقربٌ من الغِيَرِ[٧] ، وإِذا أَحدَثَ لَكَ ما أنتَ فيهِ مِن سلطانك أُبَّهة أو مُخَيلةً فانظرْ إِلى عِظَم ملكِ اللّهِ فَوقَكَ وقُدرتهِ منك على مالا تقدر عليه من نفسِكَ ، ذلك يُطامنُ[٨] إِليكَ مِنْ طماحك[٩] ، ويكفُّ عنك مِنْ غربِكَ[١٠] ، وَيفيء[١١] إِليكَ بما عَزَب[١٢] عنك من عقلك .

* نهج البلاغة : شرح محمد عبده / ج٣/ ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

اللغة

١- ضارياً : مفترساً .

٢- يفرط : يعجل ويسرع .

٣- ابتلاك : اختبرك وجربك .

٤- تبجحن : تظهرن الفرح .

٥- مندوحة : متسع .

٦- إدغال : إفساد .

٧- الغير : حادثات الدهر بتبدل الدول .

٨- يطامن : يخفف .

٩- طماح : شرٌّ .

١٠- غربك : حد سيفك .

١١- يفيء : يرجع .

١٢- عزب : بَعُدَ .

المعنى العام

كتب الإمام علي (عليه السلام) هذه الوصية إلى عامله مالك بن الأشتر لما ولاّه على مصر وهي أطول رسالة كتبها . جاء فيها : (وأشعر قلبك ...)

اجعل الرحمة لمن تبعك والمحبة وحسن المعاملة لمن في رعيتك كالشعار لقلبك .

(ولا تكونن عليهم ...) .

ولا تصيرنَّ كالأسد المولع بالفريسة ، فتنتظر استغلال أفراد الرعية ، (فإنهم صنفان ..) .

فالناس نوعان ، إما أخوك في الدين أو أخوك في الإنسانية ، وكلُّ إنسان عرضة للخطأ والزلل عمداً أو سهواً .

(فأعطهم من عفوك ...) .

فمن واجب المسؤول والحاكم أن يعفو عنهم ، عن زلاتهم كما يحب أن يعفو الله عن زلاته ؛ لأنّ الله فوق الوالي وفوق من عَيَّنَ الوالي ، وضع كلاً منهم في هذه المسؤولية ليخبرهم ويرى ماذا هم فاعلون .

(ولا تندمَنَّ ...) .

إذا عفوت فلا تندم على عفوك ، وإذا قدرت على عقاب أحد فلا تظهرن الفرح بتلك القدرة ، وإذا أردت الحكم في أمر فلا تستعجل ، وإن وجدت مخرجاً ومتسعاً في العفو فلا تتردد بسلوك ذلك المخرج .

(ولا تقولن إني مؤمر ...) .

ولا تقل إني حاكم آمر أستطيع الأمر فأطاع ، لأن ذلك مفسدة للقلب وإضعاف للدين وتقرب إلى تغيير الأحوال نحو الأسوأ.

(وإذا أحدث لك ...) .

وإن أصابك الغرور والأبهة والعظمة للمنصب الذي أنت فيه فاذكر عظمة الله وقدرته على الأخذ منك والعطاء لك وإحيائك وإماتتك ، فإن تذكر ذلك يغض من تعظيمك نَفسَكَ وتكبرك ، ويمنع عنك ما تحس به من سطوة وسرعة في البطش والفتك . كما يرجع إليك ما بَعُدَ عنك من عقلك واتزانك .

أثر القرآن الكريم في الأدب العربي

١ - في اللغة

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، ونهج أساليبهم في التعبير ، وتميز بضروب كلامهم في الإيجاز والإطناب ، والحقيقة والمجاز، وما إلى ذلك من ألوان ، ومع كل هذا فقد فاقهم بلاغة وبياناً ، فتحداهم ، وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان بأسلوبه الرائع.

وكان معجزة الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) الكبرى ، ودليله على صحة نبوته.

وللقرآن الكريم أبلغ الأثر في الأدب العربي سواء في الألفاظ أو المعاني أو التراكيب أو الصور .

واحتذى الشعراء والكتاب تلك الألفاظ والمعاني ، ونهجوا على طريقة تراكيبه وصوره كما أنه هذب لغة العرب وشذبها ، فأكسبها كثيراً من السلاسة والعذوبة ووحد لهجاتهم المتنوعة في لهجة واحدة ، هي لهجة قريش التي نزل بها الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) .وأشاع لغة العرب في أرجاء واسعة من العالم ، حيث صار يتكلم بها من دخل الإسلام ، وأصبحت اللغة الرسمية ، يتكلمون بها ، ويكتبون بكلماتها .

٢ - في الشعر

ويتجلى تأثير القرآن في أشعار العصر الإسلامي ، حيث اقتبس الشعراء كثيراً من ألفاظه وعباراته ، وزينوا بها أشعارهم، من ذلك قول كعب بن زهير :

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ	قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

فقد اقتبس كلمة القرآن التي وردت في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾ (الزخرف / ٣)

وقول الشاعر

مقاومٌ لطغاة الشرك يضربهم	حتى استقاموا ودين الله منصور

مقتبساً كلمة (الشرك) التي أكسبها القرآن الكريم ، وغيرها من الكلمات القديمة معنى جديداً كقوله تعالى :

﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾

(النساء / ٤٨)

واحتذى الشعراء معاني القرآن وأفكاره ، من ذلك تأكيدهم معنى التوحيد وفكرته كقول كعب بن مالك .

بـأن الله ليـس لـه شـريك	وأن الله مـولى المـؤمـنينا

إذ وردت هذه الفكرة في قوله تعالى : «لا شريك له» ومن المعاني القرآنية التي أكدها الشعراء فكرة القضاء والقدر كقول كعب بن زهير :

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكمُ	فكل ما قدرَ الرحمنُ مفعولُ

إذ نظر في هذه الفكرة إلى قوله تعالى :

﴿ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤ ﴾

(الأنفال / ٤٤)

أما صور القرآن الكريم ، فقد اعتمد الشعراء تشبيهاته ، واستمدوا من صوره الرائعة الجميلة ، من ذلك قول حسان مصوراً وحدة المسلمين :

مستعصمين بحبل غير منجلم	مستحكم من حبال الله ممدود

إذ وردت هذه الصورة في قوله تعالى :

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ (١٠٣)

(آل عمران / ١٠٣)

ووجد الشعراء في قصص القرآن الكريم زاداً لا ينفَد ، ومعيناً لا ينضُب فاستمدوا منه كثيراً من إشاراتهم القصصية كقول النابغة الجعدي :

أو سبأ الحاضرين مأرب إذ	يبنون من دون سيله العرما

يشير في ذلك إلى قصة سبأ التي وردت في سورة سبأ .

ومن ذلك قول كعب بن مالك :

وإن تك نمل البر بالوهم كلمت	سليمان ذا الملك الذي ليس بالعمي

مشيراً إلى قصة سليمان (صلى الله عليه وآله وصحبه) وتكليمه النمل .

أما تأثر النثر العربي بالقرآن الكريم فلا يقل عن تأثر الشعراء ، فقد استعار الخطباء والكتاب من ألفاظه ومعانيه ما وشحوا به عباراتهم وزينوا أساليبهم واحتذوا بلاغة تراكيبه وفصاحة ألفاظه مع إيجاز كلماته وسعة معانيه وسلامة أسلوبه وافتتحوا خطبهم ورسائلهم بما ورد فيه من عبارات ذكر الله ، وصيغ حمده وتمجيده .

الأدب في العصر الأموي

بعد أن وطد الإسلام لدولته دعائم البقاء والاستقرار ، كانت الأمة تتحمل أعباء نقل القيم الجديدة إلى أمم الأرض وتحرير العراق والشام من جور ظلت مظالمه تلهب ظهور القبائل العربية في هذين المصرين ، فراح أبناء العروبةِ المؤمنون بالدين يندفعون بإيمان ويقاتلون بعقيدة ويسجلون آيات البطولة بإباءٍ وفخر يحملون تعاليم ومبادئ خيرة فكانت قوافلهم تنير طريق الهداية وجحافلهم تفرش دروب الحياة بكل ما يعيد إلى أولئك الناس طعم الكرامة ويمسح عن وجوههم قتامة السنوات الظالمة . وتشير المصادر التاريخية إلى الصلات الوثيقة التي كانت تشد بين المحررين وهم يشعرون بأواصر الصلة وقرابة النسب. ومن الطبيعي أن يخلِّف المقاتلون وهم يدخلون أرض العراق أو الشام وراءهم مناظر الصحراء التي ظلت عالقة في نفوسهم والمرابع التي عاشت في حياتهم والأهل الذين حملوا حبهم ، والأحبة الذين ظلت أسماؤهم لامعة في قصائدهم ليستقبلوا حياة جديدة ويتخذوا مواطن أخرى دعتهم الحاجة إلى البقاء فيها ويختلطوا بأقوام وجدوا في ظل الإسلام أمناً وفي تشريعاته حماية وفي سماحته كرامة فدخلوا في دين الله أفواجاً .

كما وجدوا في اللغة العربية لساناً يعبرون به عن فكرهم وحسهم وثقافتهم لأنها لغة التفاهم ووسيلة الحياة وأداة التعبير ولأنها لغة الدولة الرسمية التي تخضع لها نظمها وتكتب بها رسائلها فكثرت مصطلحات الإدارة والدواوين والجند وأدوات الحرب وصنوف الأسلحة ومفردات الحياة .

أما الشعر فقد ساعدت البيئات والاندية الادبية على انتعاشه والحركة الادبية بشكل عام . لأنها كانت المكان المناسب الذي يتبارى فيه الشعراء وتعرض فيه بضاعة الادب .

إلا أَنَّ تقدم الزمن ودخول الموالي وازدياد الاختلاط وظهور الثقافات والتأثر بالعلاقات التي خلقتها ظروف الحياة والتطور الاجتماعي، والاقتصادي والحضاري قد أثر في بناء القصيدة ولون مفرداتها بألوان المظاهر التي أصبحت جزءاً من الحياة الأدبية وانعكست على صورها فبهتت بعض ملامح الصحراء وضاقت دائرة الحديث عن المرابع وخضعت ألفاظ الشعر لهذا التطور فأصبحت تقصد لذاتها وأصبح الشعر الذي يجري في أول أمره غير مقيد بشيء شعراً يتكلف فيه الشاعر جمال الشكل تكلفاً ، ولم يعد من المهم أن يكون جزلاً قوياً وإنما تكون صورته جميلة ونسيجه اللغوي ليناً وظهرت ؛ بوادر هذا التغير في كثير من الشعر الذي تأثر بانتشار ضروب الموسيقا، ورقَّ لإيقاع الدفوف وترنيم الأغاني ، وأصبحت السهولة التي اتصف بها بعض الشعراء مذهباً عاماً واتجاهاً مقبولاً .

أغراض الشعر :

لقد فرضت تقاليد القبيلة وصلة الانتماء والشعور بالتواصل على شاعر ما قبل الإِسلام خصائص معينة فهو يوقف شعره كلّه على قبيلته ، وينشر محامدها وينوه بأشرافِ قبيلته وذوي النباهة منهم ، معتزاً بخصالهم النبيلة ومشيداً بمآثرهم الحميدة ، من كرم وشجاعة ونخوة ومروءة وحلم ووفاء وفروسية وإِباء وعفة وحماية جار ، أو استجابة لنداء إِنساني ، وكان لابُدّ لهذه التقاليد أن تضعف ولابُدّ أن يمر الشعر وهو ينتقل من مرحلة إِلى أخرى بحالة من التخلخل لما ألفه من بناء فني محكم في الشعر القديم ، ومضمون متجدد وإِن كانت كثير من تقاليد هذا البناء وما أوحته تلك الصور وتوافق التعبير البلاغي قد تسرب إِلى القصيدة الجديدة وأثّر في نهجها وحدد بعض مساراتها ولكن الهيكل العام للقصيدة بدأ يتغير بوضوح كما أن التراكيب والمفردات أخذت منحى فيه بعض الاختلاف ومثل ما مّر الشعر بمرحلة الانتقال فقد عانى الشاعر من هذه المرحلة معاناة نفسية ، وهو يحس أن التوفيق بين الولاء القبلي والخضوع للتقاليد الموروثة من حيث الالتزام ، وبين الولاء لأناس لا يمتون للقبيلة بصلة أصبح قضية نفسية صعبة وحالة من حالات المضايقة الذاتية الحرجة . وكاد أن يكون الخروج من هذا المأزق صعباً وربما دفع الشاعر إِلى التعبير عنه بالاشادة بنفسه والفخر بقبيلته وسرد مآثر قومه من خلال مديحه للآخرين . وقد تحول المديح في كثير من جوانبه إِلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح وقد وثّق هذا التصوير المعتقد السائد من أن الحكم والدين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، وقد وجد الشعراء في ذلك مجالاً للحديث عن التقوى والعدالة السماوية .

شعر النقائض

يمكن عَدُّ (النقائض) باباً من أبواب الهجاء بعد أن أصبحت فناً له خصائصه والتزاماته عند جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من الشعراء الذين شاركوا في إذكاء أوار هذا الفن الذي قدم لنا نماذج جديدة ، وولد معاني محدثة ومفردات لم يسبق لهم استعمالها من حيث المدلول ، والنقائض خير قالب يصاغ فيه الهجاء ويتيح له استكمال الصورة الفنيةالمطلوبة بعد ان التزم شكلاً يمس بناء القصيدة الخارجي وموسيقاها العامة ، وهو التزام الشاعرين المتناقضين بحراً واحداً . وقافية واحدة ومنها ما يتصل ببنائها الداخلي وهو نقض الشاعر معاني خصمه .

ولم يخلُ هذا الفن من التوجيه الذي أعطى الشعراء قدرة الرقابة وتحديد السلوك الذي يأباه المجتمع وترفضه التقاليد وهم يفيضون في تحديد صفات المهجو ويختارون له أكثر الصفات نفوراً وأشدها وقعاً وأكثرها تأثيراً ، لتظل لصيقة بهم طوال حياتهم ، وتفزعهم صورتها ويرهبهم ظلها ويؤذيهم ذكرها

ولعل الخوف والهلع والبكاء الذي أثارته بعض قصائد الهجاء يعطينا صورة التأثر الذي تركه هذا الشعر في توجيه المجتمع توجيهاً سليماً ودفعه إلى تجنب كل صورة يأنفها ولا يرضاها .

الشعر السياسي

ويعد الشعر السياسي الذي أُطلق عليه شعر الفرقِ الإِسلامية واجهة جديدة عبّر من خلاله أصحابُ الفكر عن النموذج المطلوب في الخلافة بكل حرية وأفاضوا في مواقفهم . وعلى الرغم من اشتداد المنافسة واحتدام الجدل وقوة المعارك فان الرأي الحرَّ بقي صوتاً مرفوعاً وكلمة تقال فكراً يُدافع عنه .

وقد انفرد هذا الضرب الشعري بخصائص منها اعتماده وثيقة تاريخية وسياسية وعقائدية ، واستغراقه في التعبير عن الرأي والاحتجاج لما يسعون إليه من أفكار والتأثير في أصحاب الاتجاهات الأخرى للرد عليهم ، أو إبطال حججهم أو تقييد معتقدهم ، والشعر في كل صورة من هذه الصور يصطنع الادلة والبراهين ويعتمد القياس والاستدلال ويحمل طابع التأثير العاطفي

ويتجه الشعر السياسي إلى التعبير عن المشاعر بإيمان ، ويذهب في أغراض يجمعها الجهاد في سبيل العقيدة واسترخاص الحياة وطلب الشهادة ، وفي إطار هذه المعاني كان الرثاء في الشعر السياسي إشادة بنبل الغاية وسمو المبدأ ورسم الصور المشرقة التي يُحققها المقاتلون والمؤمنون بعقيدتهم في الترامي على حياض الموت أما المدح فيأخذ جانب التعبير عن الثناء بالشجاعة والصلابة والإيمان والصدق والقدرة على المواجهة ولم يكن الهجاء إلا للخصال التي اعتمدوها في المديح ، فكان التردد والتخاذل والتراجع والفرار في الحرب من الصفات التي يُذم بها المهجو ولابدّ أن تأتي معاني هذه الأغراض جديدة وأساليبها موفقة وصورها مستمدة من طبيعة المعالجة التي رافقت الأحداث وواكبت حركة التجديد والتطورات في هذا العصر [١]

(١) ينظر الحديث عن شعر الفتوح في المقدمة بصفته موضوعا من موضوعات الشعر التي تجددت معانيه في هذا العصر وتوسعت آفاقه .

الغزل

اتجه الغزل في هذا العصر اتجاهين عَبّرَ شعراء كل اتجاه عن فكرهم وعاطفتهم وموقفهم من المرأة ، فالشعراء العذريون عُرفوا بغزلهم النقي الطاهر وتعلق العاشق بمحبوبة واحدة يرى فيها مَثَلَهُ الأعلى الذي يحقق متعة الروح ورضا النفس واستقرار العاطفة ، وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله ، وتتحقق فيها أَمانيه وهو الهدف الذي يطلبه والغاية التي يسعى إِليها والأمل الذي يرتجيه وقد ترك لنا هذا الشعر نماذج من العشاق خلدت أسماؤهم عفة وعاشت ذكرياتهم صوراً من صور الوفاء الإِنساني والتضحية الخالدة . أما الشعراء الآخرون الذين وجدوا في الحديث عن المرأة إِرضاء لحواسهم فكانوا يمثلون الصورة التقليدية التي واكبت الحياة الأدبية وربما غلب على كثير منهم طابع التصور والإِفراط في استحداث الوسائل التي يعبرون فيها عن اللقاء العابر والحديث الصريح . ويمثل عمر بن أبي ربيعة والعرجي والاحوص هذا التيار الذي قدم لنا لوحاتٍ رائعة في الحوار التجسيدي الذي أعطى المرأة فيه نصيباً من الحديث .

الفرزدق

هو همام بن غالب بن صعصعة ، والفرزدق لَقَبُه . ولد عام ٢٥ هـ ونشأ في البصرة وتوفي عام ١١٠ هـ . وقد عُرف أبوه بمناقبه المشهورة ، وكان جده أحد سادة العرب وأشرافها في عصر ما قبل الإسلام ، ذاع صيته لمكارمه التي كانت مضرب المثل . وكان لنشأته في بيت كريم ذي مآثر ومفاخر وقبيلة لها سلطان واسع ، وأيام مشهورة أثر عميق في الاعتداد بهما ، والتفاخر بمحامدهما وهو يرد على خصومه ويناقض أعداءه والشعراء الذين حاولوا الانتقاص من هذا البيت وهذه القبيلة ، وتبقى قصائده سجلاً مملوءاً بمفاخر قومه وأيامهم التي بوأتهم المراكز المرموقة ، وحققت لهم الريادة في بيوت الشرف والسيادة ورفع أمر هجائه في بني تميم إلى زياد بن أبيه وكان ذلك في سنة خمسين للهجرة فطلبه وخافه الفرزدق فهرب منه متجهاً نحو البادية ومنها انتقل إلى المدينة وكان عليها سعيد بن العاص من قبل معاوية فأمنه وأجاره فمدحه مدائح كثيرة

وطرق الفرزدق أغراض الشعر المعروفة في عصره واستطاع أن يتفوق على معاصريه في الفخر لثقته بأمجاد آبائه واعتداده بمفاخرهم ، واستلاله من تاريخ حافل بكلِّ ما يدعو إلى الفخر ويبعث على الاعتزاز وكان الفرزدق نبعاً من ينابيع الشعر ....

قال الفرزدق مادحاً الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام) :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

هذا الّذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ[1]

هذا ابنُ خَيْرِ عبادِ اللّهِ كُلِّهمُ ... هذا التّقي النَّقيُّ الطّاهِرُ العَلَمُ

هذا ابنُ فاطمةٍ ، إنْ كُنْتَ جاهِلَهُ ... بِجده أَنبياءُ اللّهِ قَدْ خُتموا

وَلَيسَ قولكَ : مَن هذا ؟ بِضائِرِه ... اَلعُرْبُ تعرفُ مَنْ أنكَرْتَ والعَجَمُ[2]

سَهْلُ الخَليقَةِ ، لا تُخشى بَوادِرُهُ ... يَزينهُ اثنان : حُسْنُ الخَلْقِ والشِّيَمُ[3]

عَمَّ البريةَ بالإحسانِ فانقشعت ... عنها الغياهبُ والإملاقُ والعَدَمُ[4]

إذا رأته قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارم هذا ، ينتهي الكرمُ

يغضي حياءً ،ويغضىمن مهابته ... فما يكلَّمُ إلا حين يبتسمُ[5]

ينشق ثوبُ الدجى عن نور غُرّته ... كالشمس تنجابُ عن إشراقها الظُلَمُ

من معشرٍ حبُّهم دينٌ ، وبُغْضُهم ... كفرٌ ، وقربُهم منجى ومعتصَمُ[6]

اللغة

١- البطحاء : أرض منبسطة في وسطها مكة .

- الوطأة : موضع القدم .

- البيت : الكعبة .

- الحل : ما جاوز الحرم من الأرض.

- الحرم : ما لايحل انتهاكه ، ويراد به مكة وما جاورها من أراضٍ .

٢- ضائره : مضرّ به ، أي محط من قدره .

٣- الخليقة : الطبع .

- البادرة : الحدة أو مايبدو من الإنسان عند غضبه .

- الشيم : الأخلاق .

٤- انقشعت : انجلت ، تكشفت .

- الغياهب : الظلمات .

- الإملاق : الفَقر .

٥- يغضي : يخفض الطرف ، أي أنه يغض طرفه حياء ، ولكن الناس لعظم هيبته لايرفعون إليه أبصارهم إلا إذا ابتسم لهم إيناساً .

٦- معشر : قوم .

- معتصم : ملجأ .

التعليق النقدي

ذكر أبو الفرج الاصفهاني أن هِشام بن عبد الملك حج في أيام أبيه ، وطاف في البيت الحرام ، وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدِر على ذلك لكثرة الزّحام ... فنُصِبَ له كرسيٌّ وجلس عليه ينظر، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام .

وبينما هو كذلك ، إذ أَقبل زين العابدين علي بن الحسين (عليهم السلام) فطافَ بالبيت ، ولما انتهى إلى الحجر الأسود ، تنحى له الناس حتى استلمه فقال رجُلٌ من أهل الشام لهشام : مَنْ هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة ؟

فقال هشام : لا أعرِفُهُ ، مخافةَ أن يرغِّبَ فيه أهل الشام . وكان الفرزدق حاضراً فقال : أنا أعرِفهُ ثم اندفع فأنشد قصيدته هذه فأغضبت هشاماً فأمر بحبسه بين مكة والمدينة . لقد استهل الشاعر قصيدته بتعريف زين العابدين ممتدحاً ومعظماً فهو أفضل الناس تقىً وطهارةً وشهرةً ؛ إذ انحداره من صلب النبي محمد (ص) وفاطمة (عليها السلام) .. فَمَنْ تَنكرَ له وتجاهله لا يضيره ولا يخزيه ؛ لأنّ الملأ كله يعرفه ويقر بتفوقه وإِنسانيته وعصمته .. فهو الكريم السمح، الطلق الوجه الحسن الخَلق والخُلق .

سَهْلُ الخَليقَةِ ، لا تُخشى بَوادِرُهُ   يَزينهُ اثنان : حُسْنُ الخَلْقِ والشِّيَمُ

الذي يمتلك المهابة والحياء ..

يغضي حياء ، ويغضى من مهابته   فــما يُكلَّــم إلا حــين يبـــتسم

وهذا المدح مبطن بهجاء ، والتنويه بشهرة الممدوح رداً على مَنْ جهل من قدره..

هذا الّذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ والبيتُ يعـــرِفُهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ
وَلَيسَ قولكَ : مَن هذا؟ بِضائِرِه اَلعرْبُ تعرفُ مَنْ أنكَرْتَ والعَجَمُ

وهذا يعني أنّ القصيدة صدرت عن شعور عاطفي جياش لكونها متسمة بمياسم الارتجال والارتجاز فهو يستهلها دون مقدمة كما هو مأثور في شعر المديح فقد اقتضته المناسبة أن يبادر القول ، دون تمهل بفعل الحماس والإِيثار .. فضلاً على استناده إلى التكرار اللفظي في اسم الاشارة (هذا) والنعوت (التقي – النقي – الطاهر – العلم –سهل الخليقة ...) مع الإِكثار من الألفاظ الدينية (البطحاء – البيت – الحل – الحرم) ومن ثم نمو المضامين وتصاعدها وارتفاع هاماتها بحماس وصدق في إيقاع منتظم مع صدق العبارة وانهمار المعاني .

جميِل بثِينة

هو جميل بن معمر من بني عذرة ، ولد نحو ٤٠ هـ في وادي القرى ونشأ فيها وتعلق ببثينة وتعلقت به فخطبها إلى أبيها ولكن أباها ردَّه ، وقد ألهمته الشعر فتغنى بها وعرفت بثينة ذلك فمنحته حبها وعطفها وبسبب ما تعرضت له احتجبت راغمة واضطر أهلها إلى أن يستعدوا عليه مروان بن الحكم ولم يكتف أهلها بذلك وإنما زوجوها من فتى في القبيلة ، فاسودت الدنيا بعين جميل والتاع لهذا الخبر التياعا شديداً وهام على وجهه وصور حاله فقال :

علقت الهوى منها وليداً فَلَمْ يزلْ	إلــى اليــوم ينمـي حبُّها ويزيدُ
وأفنيتُ عمري في انتظارِ نوالها	وأبليـتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ

ويظل جميل أسير هذا الحب ، يشقى بمرارته ويتعذب ببعده ويعنف من أجله حتى يرحل إلى مصر متحملاً من الجهد في عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، إلى أن وافاه الأجل سنة اثنتين وثمانين ولا يزال اسم بثينة نغماً يتردد على لسانه وصوتاً لا يفارق أنفاسه الأخيرة .

قال جميل بثينة :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

ألا ليتَ أيامَ الصّفاءِ جَديدُ	ودهراً تولّى يا بُثينُ يعودُ[١]
فَنغنىَ كما كنَّا نكونُ وأنتُم	صديقٌ وإذ ما تبذلينَ زهيدُ[٢]
خَليليَّ ما أُخفي من الوجدِ ظاهرٌ	ودَمعي بما أُخفي الغَداةَ شَهيدُ[٣]
إِذا قُلْتُ : ما بي يا بُثينةُ قاتلي	من الحبِّ ، قالَتْ : ثابِتٌ ويَزيدُ
وإِن قُلتُ رُدّي بعض عقلي أعشْ به	معَ النّاسِ قالَتْ : ذاكَ مِنكَ بَعيدُ
فلا أنا مَردودٌ بما جِئتُ طالباً	ولاحبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ
فأفنيتُ عُمري في انتظارِ نَوالِها	وأبليتُ منها الدَّهرَ وهوَ جَديدُ[٤]
علقتُ الهوى منها وليداً فلمْ يَزلْ	إِلى اليوم يِنمي حبُّها ويَزيدُ[٥]
ألا ليتَ شِعري هل أبيَتنَّ ليلةً	بوادِي القُرَى إِنيْ إِذنْ لسَعيدُ[٦]
وقد تَلتقي الأشتاتُ بعدَ تَفرُّقٍ	وقد تُدرِكُ الحاجاتُ وهيَ بَعيدُ[٧]
يموتُ الهوى مِنّي إِذا ما لَقيتُها	وَيَحيا إِذا فارقتُها فيَعودُ
يقولونَ جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ	وأيَّ جهادٍ غيرَهُنَّ أُريدُ
لِكُلّ حديثٍ بينهُنَّ بشاشةٌ	وكلُّ قتيلٍ بينهُنَّ شَهيدُ

اللغة

(١) تولّى : انقضى .

(٢) نغنى : نقيم .

- زهيد : قليل .

(٣) خليلي : صاحبي وهي صيغة استعملت في القصيدة للدلالة على الرفقة والسفر وتأخذ صيغة المثنى .

- الوجد : شدة الحب . الغداة : الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس .

(٤) نوالها : عطاؤها . أبليت : أخلقت .

(٥) ينمي : ينمو .

(٦) ليت شعري : ليت علمي .. وادي القرى : وادٍ في الحجاز قرب المدينة المنورة.

(٧) الأشتات : المتفرقون .

التعليق النقدي

يصور جميل في أبياته حبَّه العذري ، ونقاءه الصافي ومودته الصادقة وطهره وعفته. وهي حالة عوَّدنا عليها شعراء هذا الاتجاه وهم يخلدون الوفاء الإنساني ويتركون للأجيال حالات الإنسان التي ترتفع عن كل ما يشين الوجه النقي لظاهرة الحب ، وينزهونه من كل ما يدفع عنه تهمة الحسية التي ظلت عالقة بأذهان بعض الباحثين .

وهي أصواتُ تَذَكُّرٍ وأمنياتُ عودةٍ وآهاتُ تحسُّرٍ تسلل إليها من خلال التمهيد الشعري السهل ، وتوصل إلى المعنى المطلوب مستعيناً بالعبارة الرقيقة والمفردة المختارة الدالة والحوار الداخلي الذي ترك للشاعر حرية التحريك والاجابة والتذكر قد استطاع أن يعبر عن إحساسه الداخلي بقناعته وهو يتذكر وادي القرى الذي شهد اللقاءات الأولى فحامت حول غدرانه نظرات العيون وتوزعت بين جداوله المنسابة أبيات الشعر الأولى . ومع قسوة الزمن الذي ضيَّق عليه أسباب اللقاء وضيَّع عليه مواقف لحظات السعادة التي كان يستشعرها بوجودها ، فإنّ أمله المرتقب ظل يداعب أحلامه وهو ينتظر ويتأمل ... وهي حالات نفسية عزز الشعراء بها أحلامهم ، ووثقوا صلتهم التي كثيراً ما تتعرض إلى الاهتزاز .. ويصل الشاعر إلى ذروة العطاء والتألق وهو يشير إلى الحالة النفسية الحادة في موت الهوى عند اللقيا وفناء أسبابه في الموعد المرتقب لما يغمره من شوق ويعتريه من سعادة .. ولكن الحالة التي تصورها أزلية تنتهي عند أول لحظة من لحظات الفراق فتتكاثر الهموم وتتكاثف موجات الألم ...

ويبقى جميل في ظل المقولات التي تدفعه للجهاد الذي يقتصر على الظفر ببثينة ويبقى لحديث الأحبة طعمه الطيب ولضحكاتهن البشاشة في كل لون .

أما العشاق الذين يتساقطون فهم الشهداء في حضرات الأحبة ... إنه الحديث الخالد الذي نشره جميل بثينة وبقي يتردد في كل جيل وعلى لسان كل الذين يجدون فيه صوت العاطفة الصادقة ولون الوفاء الإنساني الخالد ...

عمر بن أبي ربيعة

من شعراء الحجاز الذين أغنوا التراث الشعري العاطفي. ولد بمكة سنة ثلاث وعشرين وقيل سمي بعمر لموافقة ولادته يوم اغتيال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على يد أبي لؤلؤة المجوسي . نسب إلى قبيلته قريش فقيل القرّشي والى عشيرته فقيل المخزومي ، وكني بأبي الخطاب.

وتجمع المصادر على أن عمر كان وسيماً وقد أثار هذا في نفسه إعجاباً متناهياً تحدث عنه في شعره فكان موضع إعجاب النساء، وقد تشوقن إليه وَلَهجْنَ بذكر اسمه ووصف غروره بجماله وبنفسه حتى حمله هذا الاعجاب على الاهتمام بهيئته وملابسه وعطره فهو القائل :

وكنَّ إذا أبصرنني أو سمعنني سَعَيْنَ فرقَّعْنَ الكُوى بالمحاجر

وتوافرت لعمر منذ صغره أسباب الترف والرفاهية ، وتقلب في أحضان اليسر والسَّعَة وترعرع في ظلال اللين والدعَة ، يشهد مواسم العقيق ويمتع نفسه بمشاهد الغناء والطرب ، وقد أثرت هذه الحقبة في حياته وتوجيه شعره ولم تقعد به هذه الحياة وانما ظل يتجشم هول السرى ويشد الركاب ، يصوغ أناشيد الحب ويروي قصص الغرام ، ويعيد ألحان العذارى ، فعرف أكثر بقاع الجزيرة العربية وكابد أصناف المشقات ولا نغالي إذا قلنا «إنّ شعره يعج بوصف الحياة التي كان يحياها وانّه كان يصور النسوة اللواتي يتحدثن إليه ويستنشدنه الاشعار ويسألنه أن يقصّ عليهن بعض أخباره».

ولم يكن يطمح عمر أن ينال منهن اكثر من نظرة أو حديث أو ابتسامة رضى واستحسان. ولعله من الغريب أن يكون شاعر مثل عمر ملأ الدنيا بحق وشغل الناس يموت فيجهل الرواة أمر موته ويختلفون في سببه وموضعه ويضطرب جيل الرواة في تحديد سنة وفاته ويرى بعضهم أنها كانت سنة ثلاث وثمانين للهجرة ويروي آخرون أنها ثلاث وتسعون ، ويمد فريق ثالث بعمره فيجعله السنة الأولى بعد المئة.

قال عمر في إحدى محاورته :

(للدرس والحفظ : ٨أبيات)

قال لي صاحبي ليعلَم ما بي

أتـحبُّ القـتول أخـت الـربـابِ

قلتُ وجدي بها كوجدك بالعذ

بِ إذا مـا مُنْعتَ طعم الشرابِ[1]

مَنْ رسولي إلى الثريا فإني

ضـقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ[2]

أرهقَتْ أمُّ نوفلٍ إذ دعتها

مُـهـجتي مـا لقاتلي من متابِ[3]

حين قالت لها : أجيبي فقالت

مَـن دعـانـي قالت : أبو الخطابِ

أبرزوها مثل المهاة تَهادَى

بـين خـمس كـواعـبٍ أترابِ (٤)

فأجابت عند الدعاء كما لبّى

رجالٌ يرجـونَ حُـسْنَ الـثوابِ

وهي مكنونةٌ تحيَّرَ منها

فـي أديم الخـدَّين مـاءُ الشبابِ (٥)

دُميةٌ عند راهبٍ ذي اجتهادٍ

صـوَّروهـا فـي جـانب المحرابِ

ثم قالوا تحبُّها قلتُ : بهراً

عـدد الـنجم والحصى والترابِ (٦)

اللغة

(١) وجدي بها : ولوعي وشغفي . والعذب : أراد الماء المذِهب للعطش .

(٢) ضقت ذرعا : لم أعد أحتمل . الكتاب : أراد القسم بالقرآن الكريم .

(٣) ما لقاتلي من متاب : ليس له توبة مقبولة . يُعظم بذلك ذنبها والمراد ترقيق قلبها وتليينهُ .

(٤) المهاة : البقرة الوحشية تشبه بها المرأة في سعة العين . تهادَى : أصله
تتهادى فحذف إحدى التاءين للتخفيف ، والكاعب : المرأة التي كعب
ثديها واكتنز
الأتراب : المتساويات في السن .

(٥) الأديم : الجلد ، أراد بيان أنّ ماء الشباب يجري في وجهها .

(٦) تحبها : أتحبها . بهراً : كثيراً .

التعليق النقدي

من الخصائص التي تميز بها شعر عمر بن أبي ربيعة الحوار القصصي الذي أصبح سمة بارزة بعد أن وفق الشاعر إلى استخدامه وهو يصف مغامراته وأحاديثه ومشاعره بعبارة سهلة ، وتركيب أنيق ووصف دقيق .

وكانت أحاديثه التي يطوي في ثناياها عواطفه الساخنة وأشواقه اللاهبة تمرُّ عِبْرَ هذا الحوار وهو يدور بينه وبين أصحابه الذينَ يجسد في صورهم ما يريد التعبير به ..

ومثل ما كان الحوار واضحاً في قصائده كانت الرسل التي تشد بينه وبين الأحبة مفردة أخرى تتكرر في قصائده لأنّه يجد فيها الوسيلة الناجعة والطريق الموصل والسبب المستديم لإبقاء حالة الشوق قائمة ، وفي كل رسالة أو جواب تتوالى مضامين المعاني التي يعبر فيها الشاعر عن آماله من جهة وعن الأماني التي يتمناها .

وهي تأتي على لسان واحدة ممن اختارهن من جهة أخرى ولابُدَّ أن يكون الجواب اسم الشاعر (أبو الخطاب) .. وَتكتمل الصورة عند الشاعر حينما يجدها ضمن مجموعة من الحسان وهنَّ يتهادين دلالاً ويجتمعن كعابا .. ويستعيد في جوابها صوت دعاء الملبين الذين يرجون حسن الثواب. إنها الصورة التي يجسد فيها كل المعاني ويحشد لها الصفات ويضفي عليها من ألوان الجمال ما يجعلها أكثر حسنا وأروع جمالاً .. ويكون بعد هذا جوابه عشقاً يفوق عدد الحصى ، وحبا أكبر من النجم والتراب .. إنها اللوحة الفنية التي أغناها الشاعر الغنائي بالنغم واللون والصوت فكانت نشيداً هادئاً يتهادى ، ولحناً غنائياً تعزفه أصوات الأجيال ، وهي ترى فيه نَفَسَ الشاعرِ الصافي وحسه النقي وحبه الغامر ..

لِيلى الأخيلية

هي ليلى بنت الأخيل [1] بن عقيل بن كعب ، وهي أشعر النساء ، لا يقدم عليها غير الخنساء .. من شعرها في حبيبها (توبة) راثيةً له :-

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

فأقسمت أرثي بعد توبة هالكاً	وأحفل من دارت عليه الدوائرُ(١)
لعمرك ما بالموت عارٌ على الفتى	إذا لم تصبه في الحياة المعايرُ
وما أحدٌ حيٌّ وإن عاشَ سالماً	بأخلد ممن غيبته المقابرُ
ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً	فلا بد يوماً أن يرى وهو صابرُ
وليس لذي عيشٍ من الموت مذهب	وليس على الأيام والدهر غابرُ(٢)
ولا الحيُّ مما يحدث الدهرُ معتبٌ	ولا الميت إن لم يصبر الحيُّ ناشر(٣)
وكل شباب أو جديد إلى بلى	وكل امرئ يوماً إلى الله صائرُ(٤)
فاقسمت لا أنفك أبكيك مادعت	على فننٍ ورقاء أو طار طائرُ(٥)

(١) نسبها هنا إلى جدها الأعلى .

اللغة

١- أحفل : أهتم ، - الدوائر : المصائب ودواعي الزمن .

٢- غابرُ : زائل .

٣- معتب : مسامح ، - ناشر : عائد .

٤- بلى : زوال .

٥- فننٍ : غُصن ، - ورقاء : حمامة بيضاء مطوقة الرقبة بالسواد .

التعليق النقدي

الرثاء هو غرض القصيدة التي نظمتها (الأخيلية) بعد موت (توبة) ببنائية فنية ومعالجة موضوعية هيأت لها بافتتاحية (القسم) الذي مهد لشخصية المرثي وذاتها (أقسمت أرثي) ، أي : أقسمت لا أرثي ؛ لأن حياتها أضحت صحراء قاحلة بعد فقدها حبيبها الذي لا تستطيع تعويضه . ويستمر صوت الذات الشاعرة شاخصاً باستذكاره حتى النهاية فقسم الختام وهذا يعني استمرارية الحزن المرابط للطبيعة ومظاهرها ما دامت على قيد الحياة ..

فأقسمت لا أنفك أبكيك ما دعت   على فنن ورقاء أو طار طائر

إِنها تكشف عن قدرة شعرية متميزة منحت صاحبتها موقعاً شعرياً مهماً في القصيدة العربية كون بنائها الفني يعتمد التعامل مع آثارها النفسية في كل محور من محاورها ، من خلال وعي الطبيعة البناء المتجاوز للتقليد فهي تعتمد الحكمة في مضمونها مع اهتمام بفلسفة الموت ..

النثر في العصر الأموي

١ - الكتابة :

من الأمور المسلّم بها أن عصر ما قبل الإسلام عرف ضروباً من الكتابة التي سجلت فيها المعاهدات والاحلاف وبعض العقود التجارية وعرفت بعض المواطن بانتشار هذا النوع من الكتابة كالحيرة وغسان ونجران والمدينة ومكة وغيرها من الحواضر . ومن الطبيعي أن تزدهر الكتابة في المراكز التجارية ولم يقتصر أمر ظهور الكتابة على هذه المناطق المتحضرة بل تسربت إلى البادية نفسها . ولعل كثرة تشبيه الشعراء الاطلال الدارسة بالكتابة والقلم والسطور والنقوش يؤكد هذه الحقيقة التي توحي بهذه المعرفة . وحفل القرآن الكريم بذكر كثير من أدواتها ووسائلها وهي تأكيد آخر على معرفة العرب بها واهتمامهم بأساليبها وحاجاتهم إليها . إن وجود مثل هذه الاشارات لا يعني وجود كتابة فنية ؛ ولكن انتشار الكتابة في عصر الرسالة الإسلامية وظهور الرسائل المتبادلة بين الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وصحبه) ورؤساء الدول وبين الخلفاء والولاة والقادة والأمراء تشير بوضوح إلى تعدد أغراض الكتابة واتساع قاعدتها وكانت تتجه إلى إيضاح الغرض وتسلك المسلك الذي يحقق الغايات المطلوبة منها ، بعيدة عن التزويق اللفظي . ومنذ أوائل العصر الأموي ظهر كتاب محترفون وأصبحت الحاجة قائمة لظهور ديوان الرسائل فعرفت الرسائل الفن ، وتنافس الكتاب في إظهار براعتهم ليكسبوا رضا الخلفاء ، فظهرت خصائص تدل على تطور الكتابة وترقيها .

مثل استعمال السجع أو الإكثار من الغريب أو اعتماد أسلوب الإطناب وتكتمل حلقة الكتاب في بلاط هشام بن عبد الملك بعد أن أخذت مراحلها الأولى بالنضج والتطور لتستوي فنّاً متميزا في نشأة الكتابة الفنية التي أغنى القرآن الكريم ألفاظها ، وأمدَّها بروح الإبداع الفني فكانت فناً عربياً خالصاً .

٢ - الخطابة :

وازدهرت الخطابة في هذا العصر بعد أن تهيأ لها أسباب الازدهار فحركة الفتوح أثارت في نفوس المقاتلين أسباب التضحية وأذكت روح الإيمان والجهاد بعد اعتماد القادة والولاة في فتوحاتهم هذه الخطابة في بث الحماسة والحمية ودفع الجنود إلى القتال في سبيل الله والاستشهاد من أجل نشر الرسالة الإسلامية . بعد أن دأب القادة على مخاطبة جنودهم قبل المعارك أو في أثنائها ليلهبوا مشاعر الجهاد فيهم . وقد عملت هذه الخطب عملها في تحقيق كثير من الانتصارات وقد أثار التنافس الحاد بين الفئات والدفاع عن الحقوق المشروعة وانبثاق المناظرات بسبب المناقشات الطويلة بشأن فكرة القدر وإِرادة الإِنسان ومدى حريته موجةً من الاهتمام بالدواعي الموجبة لهذا الازدهار .

أما اتساع رقعة الدولة وانتشار الإِسلام فقد أدى إلى انتعاش الخطب الدينية التي كانت تسهم في توضيح المبادىء الإِسلامية وتُعرّف الناس بالواجبات التي يُلزم بها المسلمون والتشريع الذي يفرض عليهم التقيد بالحقوق الواجب اتباعها .

وتتصل بالخطبة السياسية تلك الخطب التي كان يلقيها زعماء الوفود الذين كانوا يقدمون من المدن والولايات مهنئين الخلفاء والأمراء ، أو عارضين عليهم حاجاتهم ومطاليبهم . وقد دأَب خطباء الوفود على اعتماد أسلوب خاص بالخطابة يكثر فيه التنميق ليستدروا به عطف الخليفة أو الوالي أو الأمير على حاجاتهم .

وقد تميزت الخطب بخصائص منها :

١ - خطباء هذا العصر كانوا متأثرين بالقرآن الكريم ... ينهجون نهجه في الأسلوب والتمثيل بآياته ...

٢ - كانت الخطب جزلة الألفاظ ، حلوة التعابير لا تخلو من السجع معتدلة في استعمال المحسنات البيانية ...

عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري من أهل الانبار ، نشأ بالشام وسكن الرقة أقبل على تعلم العربية وعلوم الدين ؛ يبغي من ورائها منزلة رفيعة . كان أول أمره معلماً للصبيان يتنقل في البلدان ولم يكد يعرف الأمويون بنبوغه حتى استكتبوه ولم يزل كاتبا لهم سنة ١٣٢ هـ إذ قتل مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . وقد ذهبت آثاره بدداً ولم ينته منها إلينا إلا الشيء اليسير من رسائله الطوال والقصار وهي تمتاز بجمال المعاني وسلاسة الأسلوب . لقد أسهمت عوامل متعددة في تفوق عبد الحميد في الكتابة والتمكن منها بهذه القوة والجودة فلقد كان الكاتب أديباً مولعاً بحفظ الشعر وجيد النثر وكلام البلغاء ونوابغ الناثرين ممن سبقوه ولا سيما خطب الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) والإمام علي بن أبي طالب (صلى الله عليه وآله وصحبه) ورسائلهما وكانت هذه الرسائل تمتاز بجودة المعنى وفصاحة اللفظ وجمال التأليف وبراعة الأسلوب مع تنويع الخطاب تبعاً لحال المخاطب ، مشفوعاً بإيجاز وإطناب مراعاة لمقتضى الحال . ويرى (شوقي ضيف) . أن صياغة عبد الحميد في رسائله لا تكاد تختلف عن صياغة الحسن البصري وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا باللغة العربية أساليبهم ومرَّنوها لأداء معانيهم وكأنما تحول أسلوبهـــــم .

إلى عبد الحميد حتى أصبح لا يختلف عنهم في شيء ، فهو يزاوج في ألفاظه متخذا طريقتهم في الترادف موشيا بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة.

وقد ظهرت آثار تلك الأقلام العربية البليغة واضحة جلية في رسائل عبد الحميد وثمارها تامة النضج يانعة الجني ثرة الماء فامتازت رسائله بتنويع الخطاب وفي إطالته للتحميدات في صدور الكتب وفي الإيجاز والإطناب والتفنن بالبدء والختام وأشهر رسائله أربع : الأولى في وصف الصيد ، والثانية في ذم الشطرنج والثالثة على لسان مروان إلى الكتّاب زيادة على رسائل صغيرة في أغراض مختلفة .

رسالة عبد الحميد إلى الكُتَّاب

(للدرس والحفظ : ٦ أسطر)

وليس أَحدٌ مِنْ أهلِ الصناعات أحوجَ إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيُّها الكُتَّاب ، إذ كنتُم على ما يأتي في هذا الكتابِ من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبُه الذي يثق به مُهمات أموره ، أن يكوُنَ حليماً في موضع الحِلْم فهيماً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الإقدام ، محجاماً في موضع الإحجام مُؤثراً للعَفاف ، والعَدل والإنصاف ، كتوماً للأسرار ، وفيًّا عندَ الشدائدِ عالماً بما يأتي من النوازلِ ، يَضَع الأمورَ مواضعهَا ، والطوارقَ أماكنَهَا ، قد نَظَرَ في كلِّ فنٍّ من فنون العلم فأحْكمه ، فإنّ لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله ، وحُسْن أَدبه ، وفضل تجربته ، ما يَردُ عليه قبلَ ورودهِ وعاقبةُ ما يصدرُ عنه قبلَ صُدورهِ ، فيُعدّ لكلّ أمرٍ عُدّتَه وعتادَه [١] ويهّيئ لكلّ وجه هيئته وعَادته .

فتنافَسُوا يا معشر الكُتَّاب ، في صنوف الأدب ، وتفقّهوا في الدِّين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائضِ ، ثم العربيَّة ، فإنّها ثقَاف [٢]

---

(١) العتاد :– العدة.

(٢) الثقاف في الاصل : ما تسوى به الرماح .

ألسنتكم ثم أجيدوا الخطَ ، فإنّه حلية كتبكم ، واروُوا الأشعار ، واعرِفوا غريَبها ومعانيها وأيام العربِ والعجم ، وأحاديثها وسيرَها ، فإنّ ذلك مُعين لكم على ما تسمو إليه هممُكم ، ولا تضيِّعوا النظر في الحسابِ ، فإنّه قوامُ كُتَّابِ الخراج ، وارغبوا بأنفسكُم عن المطامع .

التعليق النقدي

هذه صورة من نثر عبد الحميد بن يحيى كاتب الدولة الأموية في عهدها الأخير وقد أصبحت الكتابة يومئذ صناعة فنية لها أصول ورسوم من حيث تنوع موضوعاتها واختلاف أساليبها .

وبأسلوب عبد الحميد الفني وألفاظه الرشيقة يوصي الكتّاب بمجموعة وصايا بليغة تدور على ما يجب على الكتّاب معرفته وممارسته من آداب الكتابة وحسن المعاشرة ولزوم التعاون والاتصاف بالأخلاق الحميدة وذلك لما للكتابة من منزلة رفيعة ؛ فالكاتب يجب أن يجد في نفسه إعداداً يليق به وبمنزلته ، وأن يترك الرديء من كل شيء مترفعاً عن الوشاية والحقد وإضمار العداوة لأنّ هذه الصفات تجلب العداوة من دون سبب ، وعلى الكاتب أن يكون حليماً في الموقف الذي يتطلب ضبط النفس ، متخذاً لكل حال ما يناسبها ومقدماً وجريئاً .

في المواقف التي تتطلب الشجاعة والتضحية ، بعيد النظر ، معداً لكل أمر عدته ، عالماً بكتاب الله ملماً به من كل جوانبه متعمقاً العربية ، وعلى الكاتب أن يكون وفياً لصاحبه كاتماً لسره مدبراً أمره ، وذلك عند الحاجة إليه .

وإذا ولي الكاتب أمراً وصُيِّرت إليه مسؤولية من المسؤوليات فهو بضميره الحي الصادق وحسه الرقيق النابع عن وجدانه عليه أن يضع الحق في موضعه ويجعل الله سبحانه وتعالى رقيباً على ما يفعل.

مستهدفاً رضاه ومنصرفاً إلى طاعته ، حاكماً بالعدل جامعاً رعيته على المحبة والتفاني ثم نراه يحض الكاتب على التفقه في الدين والعمل بكتاب الله وفرائضه ، والتمكن من اللغة وتحسين الخط لانه زينة الكتابة ، ويوصيهم برواية الشعر ومعرفة غريبها ومعانيها ومعرفة تاريخ العرب والعجم واحداثها . ذلك المعين للكاتب في صنعته . . ويحذرهم من الانشغال بالحساب والارقام والابتعاد عن المطامع الشخصية .

وهناك وصايا أخرى في رسالة عبد الحميد لا يصعب على القارئ النبيه أن يتبينها.

والملاحظ في هذه الرسالة أن عبد الحميد الكاتب قد التزم التمهيد بما يناسب المقام من الصور لكي ينتقل منه إلى غرضه بحجة قوية حتى إذا انتهى منه ختم رسالته بخاتمة تشعر بالانتهاء. كل ذلك في منطق دقيق يسلسل أفكاره في فقرات تؤدي كل فقرة منها معنى خاصاً وترتبط بما قبلها وما بعدها ارتباطاً وثيقاً من دون اضطراب ولا إسراع .

لقد مال – عبد الحميد – إلى الإطالة في رسالته التي اقتصرنا على بعضها واستعمل السجع من دون إكثار منه ، لان أسلوبه لا يعتمد على السجع غالباً بل على ضرب من التوقيع استمده من الترادف الصوتي كما استمده من العناية بلفظه .

لقد عمد – الكاتب – إلى الألفاظ الدقيقة الأداء التي لا يصعب فهمها والتي تسير مع الطبع من غير تعقيد . وقد تميز أسلوبه بالانسجام والمنطق والعبارة المهذبة . ومن التأمُّل في هذه الرسالة يستشف ما في نفس صاحبها من أخلاقٍ كريمة عالية . ويلاحظ أنه وزن عباراته وزناً برشاقة بعيدة عن التكلف .

إن الكاتب قد فصل من المعاني واستوعب بما يترك زيادة لمستزيد . بأسلوب تميز بالازدواج في الجمل والترادف فيها وذلك لزيادة تأكيد المعاني وتقويتها في نفوس المخاطبين .إنّ أسلوب عبد الحميد في جملته يتفاوت بياناً وتجويداً في كثير من رسائله على أنه قد سما سمواً ظاهرياً في رسالته هذه . فقد نوع في أسلوب صياغتها واستعمل الصناعات اللفظية من دون أن يثقل بها عباراته .

خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي

(للدرس فقط)

حين قدم قتيبة بن مسلم خَراسان والياً عليها من قبل الحجاج [1] سنة ٨٦ هـ فلما تهيأ لغزو أخرُون وشُومان – وهما بلاد طخارستان [2] خطبَ في الناس وحثهم على الجهاد فقال :

(إن الله أحلّكم هذا المَحلَ ليُعِزّ دينهُ ، ويَذُبَّ بكم عن الحُرمات ، ويزيد بكم المال استفاضةً ، والعدوّ وقما [3] ووعد نبيَّهُ (صلى الله عليه وآله وصحبه) النصر بحديثٍ صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذي أرسل رَسولهُ بالهُدى ودِينِ الحقِّ ليُظهرهُ على الديِّنِ كُلِّه ولو كرهَ المُشركُون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظمَ الذخر عنده ، فقال : (ذلكَ بأنَّهُم لا يُصيُبهُمْ ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخمصةٌ[4] في سبيل الله ولا يَطئُونَ مَوطئاً يَغيظُ الكُفّارَ ولا يَنالون من عدوٍ نَيلاً إلا كُتب لَهُمُ بِه عَملٌ صالحٌ ، إنّ الله لا يُضيعُ اجرّ المُحسنينَ ولا يُنفقون نَفَقَةً صَغيرةً ولا كبيرة ولا يَقطعون وادياً إلا كتب لهم لِيَجزيَهُمُ الله احسن مَا كانُوا يَعملُون) .

---

(١) ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ما وراء النهر ، وافتتح بخارى وسمر قند والخوارزم ووصل في فتوحه الى كشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦ هـ .

(٢) ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيجون .

(٣) وَقْماً : قَهراً وذُلاًّ .وقمه : قهره واذله .

(٤) مخمصة : مجاعة .

ثم أخبر عَمن قتل في سبيله أنه حَيٌّ مرزوق فقال : (ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيلِ الله أمْواتاً بلْ أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون) فتنجزوا موعدَ ربكم ووطِّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياكم والهُوينَى) .

فاستشعروا ذلكم – وفقكم الله – من أنفسكم في حالة الرَّخاء والشدة والحرمان و المأساة والإحسان ، والسَّراء والضرّاء فنعمت الشَّيمةُ هذه لمن وَسَمَ بها ، من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا ولِّي الرجلُ منكم ، أو صُيِّر إليه من أمر خَلق الله وعياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل وليؤْثر طاعته وليكن على الضعيف وفيقاً ، وللمظلوم مُنصفاً فإن الخَلق عِيالُ الله وأحبَّهم إليه أرفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللأشراف مُكرماً وللفيءِ مُوفِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرَّعية متألفاً ، وعن إيذائهم متخلفاً وليكن في ملبسه متواضعاً حليماً ، وفي سِجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً ، وإذا صَحب أحدكم فليَختبر خلائقه ، فإذا عرَف حُسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحَسن ، واحتال لصَرفه عما يهْواه من القبيح ، بألطف حيلة وأجمل وسيلة وقد علمتهم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التَمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً [1] لم

(١) رمحه الفرس كمنع : رفسه .

يَهجها إذا ركبها وإن كانت شَبوباً[1] اتقاها من قِبل يديها ، و إن خاف منها شَروداً توقّاها من ناحية رأسها وإن كانت حَرُونا قَمَع برفقٍ هواها في طريقها ، فإن استمرت عَطَفَها يسيراً فيسْلَس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس وعامَلهم وجرّبهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته معاملته لمن يُحاورُه من الناس ويناظره ويَفهم عنه أو يخاف سَطوته ، وأولى بالرّفقِ بصاحبه ، ومداراته وتقويم أوَده من سائس البهيمة التي لا تُحِير[2] جواباً ولا تعرِف صواباً ، ولا تَفهم خطابا ، إلا بقدر ما يُصيَّرها إليه صاحُبها .

---

(١) شب الفرس كضرب ونصر : رفع يديه .

(٢) لا تحير : لا تردّ.

المحتويات